
روايات مصرية للجيب
أسطورة
وحش البحيرة
ما وراء الطبيعة
٣
Looloo
www.dvd4arab.com



مقدمــــة ..

اسمى هو الدكتور (رفعت إسماعيل) .. مهنتى ـ قبل تقاعدى ـ هي أستاذ أمراض الدم بعدة جامعات فى أوربا وأمريكا، إلا أن هوايتى الأساسية هي صيد الأشباح ..

مختارًا أو مجبرًا وجدت نفسى ضيفًا غير مرغوب فيه فى عشرات المقابر والقصور والبيوت المسكونة ...، وكان مضيفىّ إما مذءوبين أو أشباحا، أو مصاصى دماء تلتمع أنيابهم الحادة فى الظلام ..!

يالها من حياة حافلة تلك التى عشتها ..!

ترى ما الذى سأحكيه لكم اليوم ؟! .. هل أحكى لكم صفقة الأرواح التى أبرمتها مع د. (لوسيفر) (الاسم اللاتينى للشيطان) ؟ أم أحكى لكم مواجهتى للزومبى الخارج من قبره؟ أم أحكى لكم تجربة الدكتور (فرانكنشتاين) ؟! .. أم أحكى لكم مواجهتى مع لعنة الفرعــون (أخيــروم الأول) ؟! .. لا أدرى ..

إلى الذين فاتتهم قصصى السابقة أقول إنه قد فاتتهم لحظات مثيرة من التشويق والترقب، وإنى لأنصحهم أن يجدوها ويقرءوها . أما الذين طالعوا ما سبق فلهم أقول إننى

إننى لم أنته بعد ..!.. لم تزل ذاكرتى قوية عامرة بالأحداث المروعة التى واجهتها فى عمرى المديد ..

والآن أعتقد أننى سأحكى لكم قصتى مع وحش بحيرة (لوخ نس) الغامض.. وقد وقعت أحداثها ـ إن لم تخننى الذاكرة ـ فى أواخر عام ١٩٦٤ .. نعم ..!.. هو كذلك..

والآن أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب.. واقلبوا الصفحة ..!

سأحكى مغامرتى مع وحش البحيرة .. فلا تقاطعونى..

* * *

١ ـ ذكريات ..

نحن الآن فى منتصف الليل ..

المكان: بجوار قلعة (إيركهارت).. فى قارب وسط البحيرة.. والضباب البارد يغفو فى خمول فوق صفحة الماء الساكنة، حتى لايكاد يرى بعضنا وجوه البعض.. القارب يتأرجح..

الزمان: أواخر شهر يوليو من عام ١٩٦٤

الحدث: لقد قرر السير (جيمس ماكيلوب) أن يثبت نظريته..

فى صمت ينظر إلى ساعته بعقاربها المضيئة، ثم ينظر إلىّ ـ أو هكذا يخيل لى ـ وإلى (ماجى) وإلى (إيوان)، ثم يقول وهو يضغط على كل مقطع من حروف كلماته:

ـ لقد حان الوقت ..!.. تذكروا ياسادة.. لم يزل هنالك وقت للتراجع... أريد أن أسمع موافقتكم مرة أخرى..

ثم إنه التفت لـ (ماجى)، متسائلاً:

ـ (ماجى) ؟!..

أصدرت (ماجى) همهمة مبهمة بمعنى استمر.. ووضعت القلادة حول جيدها..

- د . (إسماعيل) ؟..

كنت أعرف أن أبواب الجحيم ستفتح بعد دقائق .. وأن الله وحده يعلم ما ستطلع عليه شمس الغد .. لكني كنت مسيرا فى طريق لا أعلم إلام يقودنى ، وقد اكتفيت بهز رأسى مشجعا له ..

- (فريزر) ؟!

- أرجوك أن تستمر .

سعل السير (جيمس) فى تؤدة ، ثم قال وهو يمد يده إلى جيبه :

- إذن فليكن ما يكون .

وأخرج البوق العاجى من جيبه .. ونفخ فيه ..

* * *

ثمة قول قديم يقول إن كل كهف تحت بحيرات (اسكتلندا) يحوى وحشا خرافيا مرعبا(*)، ولم أكن أعرف هذه المقولة في ذلك الوقت من عام ١٩٦٤ . وهذا هو قدرى .. بعد كل قصة من قصصى أكتشف أى أحمق كنته بالأمس ، بل وأى ساذج كنت منذ لحظات .. وأحسب أنى وصلت ذروة الحكمة .. ثم أكتشف - فى مغامرتى التالية - أن هناك ذروة أخرى لم أعرف عنها شيئا على الإطلاق ..

(*) مقولة حقيقية .

ولكن .. كيف لم أفهم وقتها ، أننى حيث أذهب فهناك وحوش وشياطين .. ومادامت هنالك وحوش وشياطين ، فإنى - لابد - ملاقيها ..؟!، هذا هو قدرى الذى لاذنب لى فيه ولا فضل ..

لكنى - للمرة الألف - أعترف أنى كنت ساذجا ..

* * *

لم تكن تلك المرة الأولى التى أزور فيها (اسكتلندا) ..

ولم تكن تلك المرة الأولى التى أدخل فيها جامعة (داندى) ..

فقد سبق لى أن جئت إلى هذا البلد فى فترة البعثة التى حصلت فيها على درجة الدكتوراه .. ولى فيه أصدقاء حميمون بالفعل ..

إن الاسكتلنديين إنجليز حقا ، لكنهم يختلفون كثيرا عن الإنجليزى الذى نعرفه ، فهم قوم شديدو اللطف والمودة ، خالون من البرود والتعالى وثقل الظل ، كما أنهم ليسوا ملتهبى المزاج كالايرلنديين ..

فى جامعة (داندى) كانت لى حكايات طويلة باسمة ، وذكريات حفرت فى أعماقى إلى الأبد ..

واليوم - بعد عشر سنوات تقريبا - أعود إلى أصدقاء الماضى الأعزاء .. (ماكنزى) و (مكارثر) و (مكديفيد) .

و (........ لا أدرى لماذا تبدأ كل ألقاب الاسكتلنديين بـ (ماك) ولماذا يدعى أكثر من نصف رجالهم باسم (أندرو) ؟!.. ذكرونى أن أسأل عن ذلك لو اتسع الوقت..!

المهم أننى قابلت أستاذى العظيم.. السير (جيمس ماكيلوب)، وكنت منبهرا به إلى حد الجنون..، شعره الأشيب.. وسوالفه العجيبة.. وحاجبيه الكثين.. لطالما كان يشعرنى أنه أحد عمالقة الطب الذين تراهم فى المراجع الكبيرة، ويسبق اسمهم ـ دائما ـ لقب (سير)... ثم بساطته الودود، وإيماءاته الأنيقة المليئة بالكبرياء، وتفكيره الممنطق.. كل هذا كان يجعلنى أهيم به كمراهقة تهيم بأستاذها الوسيم..

صافحنى فى حرارة.. وسرنى أنه يذكرنى بعد كل هذه الأعوام.

ـ دكتور (إسماعيل).. أليس كذلك؟!

ارتعشت زاوية فمى اليسرى وأنا أهمس بكياسة:

ـ نعم.. (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..

ـ تلميذى الفاشل!

ابتسمت فى حرج لمجاملته، ولم أعرف كيف أردّ!.. فى حين استرسل:

ـ هأنت ذا قد عدت لمصر، وافتتحت عيادة خاصة

تمتص فيها دماء الفلاحين البؤساء من أهل بلدك.. ونسيت كل شىء عن البحث العلمى.. لاتنكر ذلك!

صحت فى ذعر مقسما أن هذا لم يحدث، وأننى لم أمتلك حتى هذه اللحظة سوى شقتى بالقاهرة، وأننى لم أتغير أبدا..

ـ إذن لماذا كففت عن حضور مؤتمرات لندن؟!

هل أخبره بالسبب الذى قد يكون سخيفا فى رأيه؟!.. للحظة لم أدر كيف أشرح له، إلا أنه باغتنى بسؤال أكثر دقة وإحراجا:

ـ هل هناك أخبار عن زميلنا د. (رتشارد كامنجز)؟!

ابتسمت فى حرج، وقلت متظاهرا بالبراءة:

ـ لم أره منذ مؤتمر أمراض الدم فى عام ١٩٥٩..

ـ هذا هو بيت القصيد..

قالها فى تشكك، وهو ينظر فى عينى تلك النظرة الثابتة، التى كان يمزق بها كل أكاذيبى وادعاءاتى فى الماضى، وأردف:

ـ إنه دعاك لبيته الريفى أيامها.. ثم.. لاشىء... لاخبر عنه على الإطلاق سوى أنه سافر لأستراليا... استقال من عمله، وانقطعت كل مراسلاته، ولم يترك حتى عنوانه لنتصل به.. فهل تعرف ما حدث وقتها؟!

لقد كنت أقربنا إليه وآخر من رآه..

من الواضح أننى سأضطر إلى حكاية قصة مومياء الكونت (دراكيولا)، وتحول (كاترين) إلى مصاصة دماء ـ أو ما حاولت أن تقنعنى به ـ وهربى فى الظلام، وكل ما هو كفيل بأن يجلب علىّ سخرية هذا الأستاذ العظيم، أو شكوكه فى سلامة عقلى. الواقع أننى دفنت هذه الذكرى المريرة فى أعماق ذاكرتى، وأهلت فوقها أطنانا من غبار المشاكل اليومية.. لا أريد لها أن تعود مرة أخرى لتنغص حياتى..

قلت للسير (جيمس) فى غموض:

ـ إنها قصة طويلة..

ـ إذن ستحكيها لى الليلة..

ـ هنا؟

ـ كلا.. إننى أدعوك إلى قصرى فى (إنفرنسشاير) كى تقضى نهاية الأسبوع، وهناك سنمضى ليلة رائعة تحكى لى فيها كل شىء..! إن برنامجا حافلا ينتظرك.

حاولت التملص منه لأننى ـ بصراحة ـ لم أعد أستريح كثيرًا إلى دعوات هؤلاء الأساتذة الإنجليز لى فى بيوتهم... لقد كان (البرنامج الحافل) الذى أعده لى د. (رتشارد كامنجز)، هو المبيت بجوار مومياء (دراكيولا) مع مصاصة دماء مراهقة. فأى (برنامج حافل) أعده لى هذا السيد؟!

لكنه كان قاطعا فى دعوته، ولم أكن أنا أملك أحشائى ـ كما يقول الإنجليز كناية عن الجرأة ـ كى أرفض هذه الدعوة.

ـ إن قصرى على مسافة خطوات من (لوخ نس)..

قالها وهو يغمز بعينه، معتقدًا أننى أعرف مغزى هذا الاسم الذى قاله..

ولم أكن أعرف أى مغزى له، ولم يلفت نظرى سوى حرف (الخاء) الذى نطقه فى قوة وثقة، (والاسكتلنديون يستعملون حرف الخاء فى كلامهم بكثرة، مما يعطى الأذن إحساسًا غريبًا)... لهذا رددت وراءه:

ـ (لوخ نس)؟!..

ـ أعنى بحيرة (نس).. أنت تعرف أن كل بحيرات (اسكتلندا) يبدأ اسمها بكلمة (لوخ) ما عدا بحيرة (منتيث)... كلمة (لوخ) تعنى بحيرة..

ـ فهمت!.. إننى لا أعرف الكثير عن (اسكتلندا) فى الواقع..

قال وهو يتنهد:

ـ هذه هى مشكلتك... لقد أمضيت هنا سنتين تدرس، فلم تحاول ـ مجرد محاولة ـ أن تعرف شيئا عن البلد الذى تدرس فيه... ألم يحن الوقت لذلك..؟

- بلى .. ولكنى ..

هتف فى نفاد صبر :

- كفاك أعذارا ..!، عليك أن ترتب أمورك، وسنلتقى هنا فى تمام الخامسة ... وتذكر ..

ثم نظر إلىّ نظرة ذات معنى :

- (ماجى) ستكون هناك !

* * *

٢ ـ إنفرنسشاير ..

(ماجى) ستكون هناك !..

الألغام تنفجر واحدا تلو الآخر فى بحر ذكرياتى ..

(ماجى) الهشة الرقيقة، التى كانت تستطيع أن تسير فوق العشب دون أن تثنى منه عودا واحدا !.. العينان الزرقاوان الصريحتان البريئتان، إلى حد إشعارك بأنك شيطان !.. والشعر الذهبى الثائر ..

الأيدى المتعانقة فى شوارع أدنبـرة.. والأحـلام الشابة .. ومحاولاتى الخرقاء كى أبدو لها رجلا محنكا و (جنتلمان)، ومحاولاتها الساذجة كى تبدو لى أنثى غامضة تفهم الحياة ... ثم نلقـى قناعينـا ونضحك كالأطفال ..

كانت (ماجى) هى ابنة السير جيمس الوحيدة، وكانت تدرس الفيزياء فى جامعة (داندى) حين التقينا، وبشكل ما أدركت أن أباها لايمانع فى علاقتنا إن لم يكن يشجعها ..

وتمر الأيام وتصل عواطفنا إلى الذروة التى ليس بعدها سوى الهبوط !..

انتهى موعد البعثة .. فقالت لى فى حنان :

- ابق هنا يا (رفعت).. ابق معنا.. إن أبي سيجد لك وظيفة محترمة في مستشفاه.. وسنكون سعداء..

قلت لها في رقة:

- تعالي معي يا (ماجي).. إلى مصر.. إلى بلدي المشمس الدافئ، وقومي الطيبين.. سنكون سعداء..
- أنا لا أستطيع أن أترك دراستي وبلدي..
- وأنا لا أستطيع أن أخذل بلدي التي أرسلتني في هذه البعثة.. ولن أترك أمي وأختي..

وكانت مناقشات عقيمة طويلة، توصلنا بعدها لاتفاق هام، هو ألا نتفق أبدًا..!.. وانفصلنا.. ولمدة عامين ظللنا نتراسل، ثم.. أنت تعرف كيف تحدث هذه الأمور..، لم أعد أذكر من الذي توقف عن الكتابة أولًا، لكننا توقفنا عن الكتابة بالفعل.. لم يعد في نفسي لها إلا أثر خافت، كبقايا قبلة طفل رطبة على خدك.. سرعان ما تجف لكنها تترك أثرًا منعشًا في روحك لفترة ما..

(ماجي) ستكون هناك..!

وهناك - في غرفة المائدة الفاخرة - قابلتها بعد كل هذه الأعوام..

- د. (رفعت) على ما أعتقد!

قالتها على سبيل الدعابة وهي تصافحني بتلك اليد

الباردة البلورية، التي كنت أخشى أن أهشمها يومًا... انحنيت في تكلف وغمغمت:

- مس (ماكيلوب)..

لقد تغيرت كثيرًا.. إنها اليوم - وهي على مشارف الأربعين - أبعد ماتكون عن تلك المخلوقة الهشة التي همت بها.. لقد صارت امرأة.. ولكم أثار هذا خيبة أملي.. لكني كنت على استعداد لأن أستعيد كل حب شعرت به نحوها، لو أنها برهنت لي أن روحها لم تتغير... بالطبع هي لم تتزوج بعد، مادامت لم تعترض على مناداتي لها بمس (ماكيلوب)..

- أخشى أنك قد ازددت وسامة..!
- وأخشى أنك ازددت سحرًا..!

جلست بجانبي على المائدة، في حين جلس السير (جيمس) في صدر المائدة، وإلى يمينه سيدة حسناء في منتصف العمر، قدمها لنا على أنها مسز (إليزابث جولد)، أرملة الكوماندور المرحوم (ر. ت. جولد)... وعلى يساره امرأة حادة النظرات أخبرني أن اسمها (كونستانس هوايت)، وكان بجوارها زوجها.. وهو عجوز أصلع أخذ يرمقني في شك..

كانت مأدبة فاخرة ومنشاة جدًا، مما جعل ابتلاع أية



اقتادنا رئيس الخدم فى كبرياء ، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتية القديمة ، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها ..

لقمة مجهودا لايستهان به ، وكانت (ماجى) ودودًا إلى حد مرعب ، وتثرثر طيلة الوقت ، لكنى كنت غارقًا فى مشاكلى الخاصة ، مع آداب المائدة كى لا أبدو لهؤلاء السادة المتحذلقين فظًا ومتوحشا .. لهذا كنت أرد عليها بإيماءات متكلفة معناها أن كلامها مسل جدا ..

وأخيرا انتهى العشاء ..

اقتادنا رئيس الخدم فى كبرياء ، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتية القديمة ، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها ، وعلى الجدار سجادة أثرية ، مرسوم عليها لقطات من تاريخ اسكتلندا ..

ذلك الجو الذى لا تستطيع أن تصدق أنه موجود بالفعل ، وأنك حقًا هنالك .. لكنه يثير الخيال تماما ..

انحنيت بجوار أذن رئيس الخدم ، وهمست له بما معناه :

ـ وحياة والدك قل لى :

ـ سيدى .. !

قالها من الأعماق وبلهجة راقية جدا ، وبكبرياء كأنه قد أهين ..

واصلت سؤالى :

ـ هل أنت واثق أنه لا يوجد أشباح فى هذا القصر ؟!

- سيدى ..؟!

- أعنى.. هل هذا القصر غير مسكون بشبح اللورد فلان، أو الكونتيسة فلانة، وأنهم يخرجون ـ على سبيل المثال ـ عندما تدق الساعة معلنة منتصف الليل؟!

نظر إلىّ فى حيرة ليتأكد ما إذا كنت معتوهًا .. ثم إنه شرع يضحك فى افتعال:

- آها!.. إن السيد يمزح!.. لم أكن أعرف أن السيد يجيد الدعابة ويحبها.. هئ هئ..!

ثم إنه أشار إلى حجرة الجلوس، وهتف بطريقته المتعالية المتحفظة:

- والآن فليتفضل السادة بالجلوس هاهنا، فى حين تتناولون القهوة..

إن سيدى سيلحق بكم حالاً..!

* * *

كان الجو مرحًا باسمًا فى غرفة الجلوس، خاصة ونسائم الصيف العذبة تداعب أحلامنا.. وحين لحق بنا السير (جيمس) بدأت محاورات مسلية حول أشياء كثيرة لا أذكرها..

ثم إنه سألنى عن د. (رتشارد)، فشرعت أحكى له قصتى إياها.. أجدت الوصف وتصوير الجو، مما جعل

عيون الجالسين كلها تتسع رعبا. وهى تصغى لقصتى. وحين انتقلت إلى قصتى مع المذءوب فى رومانيا، ساد الصمت الغرفة وبدا أننى قد غزوت عقولهم تمامًا، مما جعلنى ألتهب فخرا بنفسى... ثم إننى حكيت لهم قصة النداهة.. وكانت دهشتهم واستثارتهم قد بلغت الذروة، مما جعلهم يطلقون صرخات انبهار ورعب، كلما تطورت أحداث قصتى..

لقد ملكت ناصية الحديث وانتصرت على رعبى الاجتماعى السابق، والذى كاد يفسد أمسيتى كلها..

اقتربت منى مسز (جولد) وقالت وهى تضغط على حروفها:

- لقد قابلت أخطارا كثيرة يا د. (إسماعيل)، وإنك لرجل رائع بالفعل..

قالت (ماجى) فى شىء من الغيظ:

- أو مؤلف رائع!

نظرت إليها فى دهشة.. إنها تغار!.. حقًا تغار..!..

إذن لم أزل أنا هناك أحيا.. فى قلبها... إن اتهامها لى بالادعاء قد أثلج فؤادى كثيرا..

حدقت فى عينيها الزرقاوين بثبات.. وهمست:

- واعزيزتى.. أنت لم تتغيرى!

- ماذا تعنى ؟!..
- أعنى أن كل رقتك تذوب وتتحول لشراسة النمور ، بمجرد أن تشعرى أن خطرًا يتهدد قلبك ..
- أنت مغرور ..!
- وأنت تحبيننى ..!
وهكذا .. لا أدرى كيف تعانق كفانا . وكيف ذابت العشر سنوات فى دقائق .. وكيف خرجنا للشرفة نرمق الليل الصافى .. حولنا مرتفعات اسكتلندا الشامخة ، وأنسام الليل تهمس لنا أسرارها ، وتحفر اسمينا فوق صفحة مياه البحيرة .. بحيرة (نس) ..
ومن خلفنا - فى غرفة الجلوس - كان الآخرون يثرثرون ويمزحون ، وأدار أحدهم أسطوانة رقيقة على جهاز الفونوغراف .. فانبعث صوت (تينو روسى) الرخيم ، يتغنى بالإيطالية عن شىء ما لا أدرى كنهه ، لكن يتحدث - بالتأكيد - عن مشاعرى .. ويصف خفقات قلبى فى تلك اللحظة ، كما لم أستطع أبدًا أن أصفها ..
- (ماجى) .. أنا لا أعرف شيئًا عن حياتى بدونك .. مجرد هراء طويل مرهق .. إننى إلى عينيك أنتمى ..
- إذن ستبقى معى للأبد ..؟!..
- للأبد ..!!

الأخ (تينوروسى) لم يزل يصف ما أحس به بكلمات لا أفهمها .. وعيناها الزرقاوان تدمعان .. وهناك فى ظلام الليل بدت لى ملامحها أكثر رقة .. وجهها القديم الرقيق يُبعث من قبره .. و ..
وهنا ارتجفت وتصلّبت ملامحها .. ورأيتها تنظر إلى بعيد .. تجاه مياه البحيرة ..
- (ماجى) ..؟.. هل ثمة شىء ؟
أشارت إلى اتجاه نظرها .. وهتفت :
- قل لى .. هل ترى شيئًا ما يتحرك فوق سطح البحيرة ؟ أم أن عينىّ تخدعاننى ..؟
نظرت باتجاه إصبعها إلى مياه البحيرة الملتمعة فى ضوء النجوم ، والتى تحركها الأنسام .. لا شىء هنالك .. ولكن .. بالفعل .. هناك شىء أسود غريب - كصخرة ملساء - يتحرك فى تؤدة فوق الماء .. أحيانًا يعلو ، وأحيانًا يهبط ، لكنه يحافظ على اتجاهه المنتظم تجاه ضفة البحيرة ..
قلت وأنا أضيق عينىّ محاولًا أن أرى أكثر :
- إنها قطعة خشب طافية ..
قالت وهى تبتلع ريقها بصوت مسموع :
- كلا .. أنت لا تفهم ..

ثم إنها انفلتت من ذراعى ـ وسط عدم فهمى للأمر كله ـ ووقفت على باب الشرفة تنادى أباها من الداخل ..

ـ دادى ..!.. إنه (نيسى)!..

(نيسى)؟.. عم تتحدث هذه الفتاة؟.. وماذنبى فى هذه اللحظة الفارة من مصيدة الزمن، كى يخرج لى هذا الأخ (نيسى) أيا ما كان كنهه؟

خرج السير (جيمس) كالملسوع من الغرفة، وقد تدلى سيجار غليظ من شفتيه .. وهتف من بين أسنانه:

ـ كلا .. ليس فى هذا الوقت!.. مستحيل!

صاحت (ماجى) فى ثقة:

ـ تعال وانظر بنفسك!

نظر السير (جيمس) إلى البحيرة للحظة، ثم تمتم:

ـ ولكن .. بحق السمــاء هذا صحيــح!.. قولــى لـ(جراهام) أن يحضر الكاميرا وعدسة الزووم ..

قالت مسز (هوايت)، وكانت قد دخلت الشرفة مع الآخرين:

ـ لاجدوى.. لن يستطيع الفلاش أن يضىء كل هذه المسافة..

وافقها سير (جيمس) فى ضيق.. ثم عاد يرمق المشهد..

كنت أنا واقفا كالأبلة لاأفهم أى شىء على الإطلاق.. لهذا تنحنحت وسألت فى كياسة:

ـ ما هو (نيسى)؟!

نظر إلى سير (جيمس) لوهلة فظننت أنه سيرد على.. لكنه كان شارد الذهن، فلم يعبأ بسؤالى، إنما التفت إلى مسز (جولد) وسألها:

ـ هل تظنين أنهم رأوه فى (إيركهارت) ..؟

ـ لا أعتقد ..

هرش رأسه فى حيرة.. ثم غمغم:

ـ ولكن اليوم هو السابع عشر من يوليو .. ثمة خطأ ما فى حساباتى..

ـ ما هو (نيسى)؟

نظرت إلى (ماجى) فى ضيق.. وعادت تتبادل حديثًا هامسًا مع مسز هوايت.

ـ (ماجى).. ما هو (نيسى)؟..

قالت وهى تنظر إلى بعيد، وقد انعكس بريق النجوم على مقلتيها:

ـ إنه اسم التدليل الذى نطلقه فى اسكتلندا على وحش (لوخ نس)!!

٣ - أسطورة وحش البحيرة..

- إن الخسوف القمرى قد أدى لحجب البدر هذه الليلة.. هذا هو التفسير..

كنا جالسين فى قاعة الجلوس، ودخان التبغ يملأ المكان، فى حين شرعت النساء يلعبن لعبة الكونكان..، وكان المشهد الذى عشته منذ ساعة قد هزنى كثيرًا..، صحيح أنه لم يكن واضحا، لكنه كان مؤكدا ولا يدع مجالًا للشك..

- نعم هو الخسوف.. لاشك فى ذلك..

قالها سير (جيمس) وهو يهرش رأسه..

سألته فى اهتمام:

- هل (لوخ نس) هى أكبر بحيرات اسكتلندا؟

- كلا.. بل أكبرها هى بحيرة (لوموند)..

- وما حكاية هذا الوحش؟!..

فى غموض ضيق السير (جيمس) عينيه ونفث دخان سيجاره.. قائلًا:

- إنها قصة طويلة..

ثم إنه نفض رماد السيجار فى منفضة زجاجية بجواره، وقال:

- إن أفضل من يحدثك عن هذه القصة، هو المسز (هوايت)..

- (كونستانس)..!.. [illegible] د. (إسماعيل) عن قصة الوحش..؟!..

قال الرجل العجوز الذى نسيت وجوده تمامًا:

- إن زوجتى خبيرة بالموضوع.. وقد قامت بتأليف كتاب كامل عنه..(*).

استدارت (كونستانس) من فوق كتفها وهى منهمكة فى اللعب، وقالت دون أن تنظر إلىّ:

- لايوجد الكثير مما يُقال..

لقد بدأت القصة عام ١٩٣٣ حين خرج (جون ماكى) صاحب فندق (رمنادروشيت) مع زوجته للنزهة عند البحيرة.. وهنا رأيا مارأيناه نحن تقريبًا..

جسمًا أسطوانيًا مقوسًا داكن اللون، ينزلق فوق مياه البحيرة..، وبالطبع فإن كون اثنين رأياه، يدلّ على أنه ليس وهمًا..

(*) كل الشخصيات والأحداث فى هذا الفصل حقيقية.

لهذا شاع الخبر .. وأطلقوا على الوحش اسم (وحش لوخ نس) ..

قلت فى شك :

ـ لكنهما قد يكونان اتفقا على قصة ملفقة بغية الشهرة ، أو ترويج حال الفندق الذى يملكانه ..

واصلت (كونستانس) القصة دون تعليق :

ـ فى ١١ مايو من نفس العام ، كان (الكسندر ريبو) وولده (اليستير) يسيران بجوار البحيرة ، فوجدا نفس (الشىء) يسبح تجاه خليج (إيركهارت) فى حركة لولبية غير عادية .. و .. لقد أنهيت أوراقى ..

وألقت بأوراقها على المائدة ، معلنة انتصارها على (ماجى) ومسز (جولد) ..

ـ إن لعبكما لعب مبتدئين يا صديقتاى ..!

صاحت (ماجى) فى احتجاج تطالب باللعب دورًا آخر ، من ثم شرعت مسز (جولد) (تفنط) الأوراق ..

قالت (كونستانس) مواصلة قصتها ، وهى تأخذ أوراقها :

ـ بعد ذلك استطاع (ويليام برودى) وهو فى قاربه الأرو ، أن يشاهد ذلك المخلوق على بعد ميلين من قلعة (إيركهارت) ..

قلت فى تساؤل :

ـ دائمًا قلعة (إيركهارت) هذه ؟!

ـ نعم .. فى كل مرة يُشاهد هذا الشىء فى مسافة ما بين قلعة (إيركهارت) و (أوجستس) ..

ـ هل هناك مرات أخرى ؟

ـ نعم .. لقد شوهد حوالى ثلاثمائة مرة ..!

صفرت بفمى معبرًا عن الانبهار .. فابتسمت فى رضا وقالت :

ـ دائمًا كان هناك الوصف ذاته ..

جسم أسطوانى طويل .. طوله يتراوح بين ٦ ـ ١٥ مترًا .. يسبح بسرعة ٢٠ عقدة .. وطريقة سباحته هى إما الحركة اللولبية وإما التثنى المستمر ..

هناك من قالوا إن له معرفة حصان لكنى لا أثق كثيرًا بهذه الإضافة .. ، ولم يسمع له أحد صوتًا حتى الآن ..

ـ وهل استطاعوا تصويره ؟!

ـ مئات الصور .. لكنها جميعًا تمت فى نفس الظروف التى رأيناه فيها هذه الليلة .. أى أنها جميعًا صور غير واضحة ، ولا يمكن الاعتماد عليها بشكل علمى ..

ـ وهل حاول العلماء دراسة هذا الموضوع ..؟!

قالت وهى ترتب ورقها :



ـ مئات الصور .. لكنها جميعًا تمت في نفس الظروف التي رأيناه فيها هذه الليلة .. أي أنها جميعًا صور غير واضحة ..

ـ أكثر من مرة .. أكثرها جدية هي محاولة العالم (ونرل) الذي جاء من (جلاسجو) ومعه فريق كامل من الكشافة، أمضوا أيامًا عديدة في انتظار ظهور هذا الكائن .. لكنهم لم يوفقوا ..

بل إن سيرك (برايتون) أعلن عن جائزة مادية هائلة لمن يأسر هذا الوحش .. لكن ـ بالطبع ـ لابد لك قبل أن تأسر الوحش أن تجده .. ولهذا لم يفز أحد بالجائزة ..

ثم كانت محاولات ضابط البحرية الكوماندور (ر. ت جولد) رحمه الله. وهي محاولات موفقة إلى حد ما ..

ـ (ر. ت. جولد)؟.. إذن مسز (جولد) ..؟

ـ نعم .. هي أرملته ..

ـ ولكن .. يالها من مصادفة!

ابتسمت مسز (جولد) في مرارة ورفعت وجهها نحوي:

ـ ليست مصادفة .. إن وحش (نس) هو الذي جمعنا جميعًا ها هنا، لأننا ـ جميعًا ـ من المهتمين بهذه القصة.

قال السير (جيمس) في مودة:

إننا مجموعة من الأصدقاء نبحث عن الحقيقة، وإننا لابد واجدوها .. إن زوج مسز (هوايت) هو مدير قناة (كاليدونيا) التي تحرس البحيرة ومسز (هوايت) نفسها صاحبة أهم كتاب عن الوحش ..

أما مسز (جولد) فهي أرملة مؤلف ثاني أهم كتاب عن هذا المخلوق، ثم (ماجي) وأنا بحكم جيرتنا لمسرح الأحداث، وكوننا رأيناه مرارًا.. بل إنني كدت أدهمه بسيارتي!

ـ سيارتك؟.. هل هو ..؟

ـ نعم.. إنه يترك البحيرة كثيرًا كي يتسكع هنا وهناك.. وقد رآه كثيرون يفعل هذا..

ابتسمت في سخرية، وشرعت أقهقه بصوت خفيض..

فقال سير (جيمس) في حنق:

ـ ما الذي يضحكك؟.. إن كل ما قلناه حقائق علمية..

استدركت معتذرًا بأنني لا أسخر من كلامهم، لكنني أسخر من حظي العجيب، الذي يقذفني دائمًا في كل مكان يجوبه شبح، أو يغلو به مصاص دماء، أو ينتظر فيه وحش!..

هنا قال (برترام هوايت) في لهجة موضوعية:

ـ إن كون الوحش موجودًا من عدمه، لم يزل يحتمل الكثير من الجدل.. لقد رأى كل هؤلاء (شيئًا ما)، لكنهم لم يروا وحشًا كامل النضج ينفث النار من فمه، وبمعنى آخر إن هناك (شيئًا ما) يشاهده الناس بكثرة في هذه البحيرة، لكننا لا نعرف ما هو..

إن زوجتي قد درست الاحتمالات الأخرى كلها..

قالت مسز (كونستانس) في نفاد صبر، بما يوحي أنها حكت هذه القصة مرارًا:

ـ لقد فكر العلماء في كل شيء.. قالوا إن هذا الشيء سرب من الاوز البرى.. وقالوا إنه حشد من سمك السلامون.. أو دلافين مشاغبة، أو أخطبوط عملاق..

قالت (ماجي):

ـ إلا أن أقوى الاحتمالات هو السمك الجذاف.. وهو نوع من السمك يعيش هنا.. اسمه العلمي هو.... هو.... ريجـ....

قالت مسز (جولد):

ـ (ريجاليكاس جليسنى)..

ـ نعم.. كما قالت بالضبط... هذا السمك له معرفة حصان وطول السمكة مرعب.. وعمرها عشرون عامًا.. إنها تناسبنا تمامًا..

ـ إلا أن شيئًا من كل ما قيل لن يظهر في الصور بالشكل الذي رأيناه..

قلت في شرود:

ـ لكنني لا أفهم.. إن هذا.. هذا الشيء.. غير مؤذ بالطبع.. أعني أنه لا يفعل أكثر من الظهور ليلًا وإثارة التساؤلات..

قال سير (جيمس) :

ـ هو كذلك ..

ثم نظر إلىّ نظرة ذات معنى .. وغمغم :

ـ .. حتى شهر مضى ..!

* * *

٤ ـ مرة أخرى ..!

فى الصباح سرت أنا و (ماجى) على شاطئ (لوخ نس) متشابكى الأكف ..

تقع (إنفرنسشاير) فى شمال (اسكتلندا) وسط مجموعة من المرتفعات اسمها مرتفعات (جرامبيان)، وتوجد فى إنفرنسشاير أعلى نقطة فى بريطانيا كلها .. واسمها (بن نيفس) ..

ومن نقطة (بن نيفس) يمكنك أن ترى الوديان كلها نائمة عند قدميك، وترى بحيرة (نس) بوضوح شديد، إن بحيرة (نس) هى أقرب لأخدود مابين مرتفعات (جرامبيان) والمرتفعات الشمالية، هذا الجزء الأخدودى يُدعى (جلينمور) ..

وتعتبر بحيرة (نس) ـ هكذا أخبرتنى (ماجى) ـ أضيق بحيرات اسكتلندا، حيث لاتزيد فى بعض أجزائها على كيلومتر ونصف اتساعًا .. عمقها ٢٦٦ مترًا .. مساحتها ٥٦ مترًا مربعًا .. طولها ٤,٨٣ كيلومتر ..

لا أدرى ما هى جدوى هذه الأرقام لكننى أسجلها للدقة الجغرافية فحسب .. ولكى أثبت لـ(ماجى) العزيزة أننى لم أكن تلميذًا معتوهًا إلى هذا الحد ..!

قلت لها معاتبًا :

- (ماجى).. لم أر حتى اللحظة رجلا اسكتلنديًا يرتدى التنورة!

ضحكت فى سخرية، وقالت :

- إن هذا هو ولعلكم بالأنماط.. إنها زى شعبى نرتديه أحيانا، وليس طيلة الوقت.. نفس السبب الذى يجعلنى لاأراك بالجلباب والطربوش، برغم أننا لانتخيل المصرى إلا هكذا..

- إن صورة الاسكتلندى فى ذهننا، هى صورة رجل يرتدى البيريه والتنورة، ويعزف موسيقا القرب، ويشرب الويسكى طيلة اليوم..

قالت فى مرح :

- نعم.. كما نتخيل المكسيكى بقبعة عريضة، وحزامى رصاص، وزجاجة (تاكيلا)، يطلق النار طيلة اليوم، والأمريكى راعى بقر أبدى... والألمانى بشوارب كثة و (سالوبيت) وشوب ببرة.. إن السينما والقصص المصورة قد أفسدت تفكيرك، وجعلتك تميل إلى التنميط..!

- هذا صحيح.. لكن التنورة..

- على فكرة.. اسمها ليس تنورة، ولكن (كلتيه)..،

كما أن الاسكتلنديين ليسوا بخلاء كما يحبون أن يصفوهم فى القارة..

- هذا ما لم أخبره بعد..!

ضحكت فى دلال.. ثم أخذت تنظر لوجهى فى ثبات.. آه ياملاكى!.. ليت لى وجهًا أجمل من هذا كى أريه لك..!..

فى ضوء النار تبينت -بوضوح- ما اقترفته السنون من جرائم فى حق هذا الوجه.. وجهها...، لم تعد نضرة.. ولم تعد صافية.. لقد صارت واحدة أخرى.. لكنها ظلت رائعة برغم كل شىء.. ولم أكن فى حاجة إلى كثير جهد، كى أقع فى غرامها من جديد.. سيكون هذا هو الحب الثانى فى حياتى...، أولا أحببت فتاة رقيقة هشة اسمها (ماجى).. ثم الآن سأحب امرأة ناضجة مُنهكة اسمها -أيضا- (ماجى).. ولن تتهمنى إحداهما بأننى أخونها مع الأخرى..!

قالت فى شرود وهى تتأملنى :

- بحق السماء!.. أنت قد شخت حقًا!..

- آسف على كونى قد شخت، وأعدك ألا أكرر هذا الخطأ!!..

أخذت تضحك.. ثم قربت وجهها من وجهى.. وهمست :

- للأبد ..؟!

- ماذا ..؟

- ستبقى معى للأبد ..؟

- وحتى تحترق النجوم كلها .. ولن ...

وهنا صرخت فى هستيريا وهى تشير للبحيرة :

- هل تراه؟.. إن (نيس) يتحرك هناك ..!!

اللعنة ..!

إن هذا (الأخ) ينوى أن يحطم أعصابى ..!.. وهو لايختار إلا أسوأ اللحظات - أو أفضلها - كى يعلن عن وجوده، ويواصل رحلته البلهاء فى هذه البحيرة ..

هوذا ذلك الجسم الأسطوانى الرمادى يشق طريقه بين الأمواج من بعيد، ورذاذ الماء ينتشر حوله .. أقرب شىء لغواصة تتحرك تحت الماء، وقد علا الماء منها حوالى ثلاثين سنتيمترًا .. إلا أنه بدا أكثر ليونة ومرونة من المعدن .. لاشك أنه كائن حىّ .. سمكة عملاقة أو حوت أو شىء من هذا القبيل ..

صاحت (ماجى) - وكنت قد بدأت أمقتها هى ووحشها - فى ذهول :

- لم يحدث أبدًا أن رآه أحدنا فى ضوء النهار ..

ثم نظرت ناحيته فى حسرة .. وتنهدت :

- لو كان معنا كاميرا ..

قلت لها وأنا أمد يدى فى حقيبة اليد التى أحملها :

- معى واحدة .. ولكن لاتقولى إنك تنوين إضاعة عدة لقطات على هذا الشىء الأبله ...

صاحت حانقة وهى تنتزع منى الكاميرا وتضبط عدستها :

- هل كانت معك طيلة الوقت، ولم تهتم بإخبارى ..؟.. لو أنه غاص فى الماء قبل أن أصوره لقتلتك !!

- لكنى لاأفهم .. ستكون مجرد صورة أخرى لاتثبت شيئا .. أمواج وجسم رمادى وسطها، ثم إن الفيلم أبيض وأسود، مما سيزيد الأمور سوءًا .. مجرد كثافات رمادية لايبدو فيها أى شىء ..

- ششش ..!!

قالتها وهى تصوب عدستها نحو الهدف .. و .. كليك!.. كليك!.. كليك!.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة اليوم .. كليك!.. كليك!.. كراك!!.. انتهى الفيلم لحسن الحظ .. وهنا - قبل أن أفهم - تركتنى واقفًا كالأبله، وشرعت تركض تجاه القصر، وهى تصيح ملوحة بالكاميرا :

- دادى!.. إنه (نيس)!.. لقد صورته فى النهار ..!



قالتها وهى تصوب عدستها نحو الهدف .. و .. كليك !.. كليك !..
كليك !.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة اليوم

وقفت وحدى على شاطئ (لوخ نس) أرمق ذلك الشيء المتحرك عن بعد .. فى غيظ رفعت قبضتى، وصحت بالعربية التى لم يفهمها لحسن الحظ أحد :

ـ الأيام بيننا يا ماسورة المجارى الصدئة ..!

على أننى تذكرت ما رواه لى السير (جيمس) ليلة أمس، مما جعلنى أفضل عدم تحدى هذا الكائن، بل أقرر أن أنهى جولتى لأعود للقصر ..

* * *

كئيب جدًا هذا القصر الذى يملكه السير (جيمس) .. وكل ركن فيه يذكرنى بأشباح اسكتلندا العديدة، التى نراها فى السينما ... ودروع الفرسان الواقفة فى الردهة تبدو كأنها حية على وشك الحركة فى أية لحظة .. وبالطبع لابد أن تحت هذا القصر شبكة كاملة من الممرات والمتاهات ومقبرة منسية، وربما كنزًا مدفونًا ..!

ثم رئيس الخدم (جراهام) الوقور المتحذلق، الذى يثير وجوده فى نفسى الرعب وجوًا من التشاؤم .. لو كانت هذه قصة لـ (أجاثا كريستى) لوجدوا السير (جيمس) مقتولًا فى مكتبه، ولما وجد المخبر ـ (هركيول بوارو) طبعًا ـ متهمًا أفضل من رئيس الخدم الغامض هذا .. لكن هذه ليست قصة لـ (أجاثا كريستى) لحسن حظ السير (جيمس) أو لسوء حظى أنا ..!

أخذ السير (جيمس) يسير بى بين الصور الزيتية، يعرفنى أفراد عائلته العريقة، التى كان هو آخرها - بحكم النسب وبحكم الواقع - لأنه لم ينجب وريثًا ذكرًا...، وكان هو يعشق الطب؛ لذا اتجه لدراسته، وصار طبيبًا وأستاذًا لى ولغيرى..

- إن عائلتى تعود إلى عهد (ماكبث) نفسه!

- (ماكبث)!!

ضحك فى جذل.. وقال:

- لا أصدق أنك قد أمضيت سنتين فى اسكتلندا دون أن تعرف أن (ماكبث) - بطل مسرحية شكسبير - كان اسكتلنديًا..

- لكنه شخصية خيالية..

- كلا.. الأساس التاريخى للمسرحية صحيح.. إلا أن (مكدوف) لم يقتله فى الواقع، بل عاش حتى عام ١٠٥٥.. ومات ميتة طبيعية...، ثم تلاه (مالكولم) الثالث فى عام ١٠٥٨..

ثم يتتالى تاريخ اسكتلندا المتشعب المعقد، وسلالة ملوكنا الذين حكمونا من قصر (هوليرود هاوس)..

ثم وضع يده على كتفى، وقادنى لغرفة مكتبه وهو يقول:

- ولكن دعنا من هذا.. تعال لنرى صور (وحشك) التى التقطتها (ماجى).. لقد وصلت الآن..

وعلى مكتبه الأثرى الفاخر، تناثرت صور فوتوغرافية، لما التقطته (ماجى) صباحًا...، وكانت - كما توقعت - فى غاية الرداءة وعدم الوضوح..

وقد زانتها قطرات الماء المتطايرة فوق العدسة سوءًا..

- فاشلة تمامًا.. هه؟

سألنى وهو يقدم لى سيجارًا، ويجلس خلف المكتب.. فقلت:

- لقد أنذرتها..

قال لى:

- لكن هناك شيئًا جديدًا يستحق الاهتمام، هو أن وحش (لوخ نس) قد غير من نظام ظهوره..

- نظام؟!..

ابتسم فى مرح، وتساءل:

- بالطبع.. أليس وحشنا بريطانيًا..؟.. إنه منظم ودقيق جدًا.. وظهوره ليس عشوائيًا على الإطلاق..

ومد يده لدرج مكتبه، وأخرج لفافة ورق مقوى فردها على المكتب.. وكانت عليها نقاط حمراء وخضراء، ورسم

دقيق لساحل اسكتلندا الشمالي، مع أسهم عدة... وبدأ يشرح لي – في تؤدة – أن هذا المخطط يحاول تحديد أماكن وتواريخ ظهور هذا الوحش، مع ربطها بالوضع الفلكي وحالة القمر والساعة والظواهر الطبيعية كالمد والجزر.. الخ..

وكان من الواضح أنه يتحرك في دائرة مركزها على بعد مائة متر من قلعة (إيركهارت)... كما أنه من الواضح أيضًا أنه يختار ليالي المحاق –حين يغيب القمر– ويبدأ الجزر وينتصف الليل كي يظهر.. وقد رسم له السير (جيمس) –أو العبقري الذي لاحظ كل هذا– منحنى تفصيليًا يتنبأ بدقة أين وكيف سيظهر المرة القادمة..

– في أغسطس ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة الحادي عشر هنا..

في سبتمبر ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة اليوم السادس هنا..

صحت بانبهار:

– إنه عمل رائع..!.. إذن كل ما تحتاجونه هو أن تكونوا هناك في هذه اللحظة بكاميراتكم وكشافاتكم..

– لم نفعل هذا بعد، وسأقول لك السبب بعد قليل..

وناظرًا إلى الخريطة المعقدة أمامي تذكرت شيئًا:

– وأين يذهب بعد هذه الفترات؟.. أين عرينه ؟!..

هرش السير (جيمس) رأسه في تؤدة.. وغمغم:

– هذا هو السؤال كما يقول هاملت.. ثمة احتمالان..

الاحتمال الأول هو أنه يعيش في كهف تحت البحيرة، وأنت تعرف المقولة الشهيرة إن كل كهف تحت البحر في اسكتلندا يحوي وحشًا خرافيًا..

الاحتمال الثاني هو أنه يعيش في بحر الشمال، وحين يعلو الفيضان في شهري يناير وفبراير، يتمكن من دخول (لوخ نس) عبر إحدى قنوات (كاليدونيا) السبع..

ولكن.. لكم من تساؤلات تحيط بهذا المخلوق!

* * *

٥ ـ صخرة التضحية ..

قال سير (جيمس):

كانت الصحافة تؤيد دائما الاحتمال الثانى، خاصة أن الوحش لايظهر بتاتًا فى السنوات التى لايجىء فيها الفيضان..

أن بحر الشمال ملىء بالأسرار.. وهو يحتمل وجود مئات الوحوش مثل وحشنا..

ـ وما رأيك أنت..؟

ـ أنا متعادل.. التجريب هو القياس الوحيد الذى أعرفه..

قلت فى حماسة:

ـ لماذا لا تمدون شبكة ـ كالتى يضعونها حول الموانئ لمنع تسلل الغواصات المعادية ـ لتسد قنوات كاليدونيا هذه؟

قال بيرود:

ـ وعندئذ؟

ـ وعندئذ نعرف.. لو لم يعد الوحش للظهور فى (لوخ نس) فمعنى ذلك أنه سجين فى بحر الشمال الرهيب..

ـ لم تزل متسرعا كعهدى بك!

قالها فى عتاب.. ثم بدأ يشرح لى ما غاب عنى:

ـ يحتاج هذا إلى شبكة طولها كيلو متران، وارتفاعها ٢٦٠ مترًا، كى تسد القناة.. فكيف نصنعها؟.. وكيف نعطل الملاحة؟

ثم هب أننا فعلنا ذلك.. فإننا لن نثبت شيئا.. لو كان الوحش داخل البحيرة لحظة وضع الشبكة، سيظل يظهر كعادته دون أن نعرف شيئا.. فكر فى حل آخر..

شرعت كالمحموم أفكر.. لم أصل لشىء، فقلت له ما معناه أن حمارى قد غلب، فقال وهو يعبث بالقلم:

ـ السونار (*).. الموجات فوق الصوتية قادرة على مراقبة مداخل القناة دون أن تسدها.. وتستطيع دراسة الأعماق دون جهد وبتكاليف لا تذكر..

لقد قام قسم فيزياء الصوت ـ تحت إشراف (ماجى) وموافقة (برترام هوايت) مدير القناة ـ بمراقبة القنوات السبع طيلة فترة الفيضان، بوساطة تقنية معقدة من الموجات فوق الصوتية.

(*) السونار: كلمة هى ملخص الحروف الأولى من المقطع (الملاحة بالصوت وترديده)، وهو عبارة عن رادار مصغر يرسل الموجات فوق الصوتية ويستقبلها حين تريد، وله كثير من التطبيقات فى الطب وعلوم البحار.

- والنتيجة ؟
- سلبية .. لم يمر من قناة كاليدونيا سوى أسماك، وبرغم هذا عاد (نيسى) يمارس عمله .. فماذا نستنتج من ذلك ..؟
- أن الوحش كان هنالك دائما .. فى القاع ..
- هو كذا ..
ثم أنه نهض وأخذ يتجول فى الغرفة عاقدا يديه خلف ظهره .. مهيبا رائعا كعهدى به ... بعد دقائق من الشرود قال لى :
- لقد لاحظت أن ظهور الوحش كان دائما حول محيط دائرة مركزها قرب قلعة (إيركهارت) .. لقد حاول الكومندور (ر . ت . جولد) أن يحدد مركز هذه الدائرة بالضبط ووجد أنه صخرة ضخمة فى وسط البحيرة ...، وقد استكشفنا هذه الصخرة خفية، حاملين بعض المعاول .. فوجدنا عظاما بشرية -كلها لأكف ومعاصم- ووجدنا صندوقا من الخشب المتآكل، تفتت فى أيدينا حين حاولنا إخراجه .. وداخل الصندوق كانت هناك قلادة غريبة الشكل، وبوق من العاج أو ربما من قرن ثور برى، ولفافة من الجلد ..
تجمدت فى مقعدى لأن القصة بدأت تأخذ مجرى شديد الإثارة بالفعل ..

انا أحب هذه الأشياء، وأعتقد أن أكثركم يشاركنى الرأى ..
استطرد سير (جيمس) فى قصته :
- وها هى ذى اللفافة ..
ومد يده، وأخرج من درج المكتب شيئا متآكلا قذرا، عليه رسوم باهتة ساذجة .. زوارق .. وأشخاص .. وشىء كالثعبان يخرج من الماء .. و ... لم أفهم شيئا من هذا الهراء .. ولم أحاول أكثر ..
قال سير (جيمس) :
- أنت تعرف أن شمال اسكتلندا كان محتلا بقبائل الفايكنج والسلت فى القرن الثانى عشر .. فى عصر الملك (دافيد) بن (هنرى) الأول و (ماتلدا) ..
طبعا لم أكن أعرف شيئا من هذا، لكنى هززت رأسى بما يعنى أن هذه المعلومة قديمة جدا ومكررة ..
قال سير (جيمس) فى رزانة :
إن لدينا ما يحملنا على الظن، أن هذا المخطوط خاص بقبائل الفايكنج .. وهو يرسم قصة مسلية جدا .. سأشرحها لك ؛ لأننا قد قتلناها دراسة ..
المشهد الأول يصور الآلهة غاضبة .. وأعتقد أنها هى (أودين) معبودة الفايكنج الوثنية ..

المشهد الثاني يصور وحشًا كالثعبان له معرفة حصان يهاجم الناس من الماء ..

المشهد الثالث يصور، رجلًا ينفخ في البوق عند أحد الخلجان ..

المشهد الرابع يصور فتاة مقيدة على الصخرة ونصفها السفلي متدل في الماء، في حين يتقدم الوحش ليفترسها .. وعلى صدرها قلادة معينة ..

لاحظ أن القمر غير باد في الصورة ..

والآن نستطيع أن نجمع أطراف القصة ..

لقد اعتاد الفايكنج ـ أو السلت ـ تقديم القرابين لوحش (لوخ نس) كي يتركهم وشأنهم؛ لأنهم أعتقدوا أنه انتقام من معبودتهم الوثنية (أودين) .. وكانت القرابين تقدم له عند هذه الصخرة، في صورة عذراوات شابات يُقيدن بالسلاسل، ويلبسن قلادة الفداء ..

ثم يقف كاهنهم عند خليج (إيركهارت)، وينفخ في البوق .. من ثم يتحرك الماء ويرتفع رأس الوحش خارجًا من كهفه .. لابد أن تأثير هذا كان دراميًا وإنني لا أحب أن أرى هذا المشهد أبدًا ..

كان هذا يحدث بانتظام، بحسب التقويم الديني لهذه [illegible]

وبمرور الوقت لم يعد هناك فايكنج ولا سلت .. فماذا يفعل هذا الوحش المسكين، الذي فقد مصدر طعامه ؟!..

لقد عاد ليغفو في كهفه مكتئبًا منتظرًا قدوم الفرج، وأن يسمع مرة أخرى صوت البوق يدعوه للعشاء ..

ومع الوقت تعلم أكل السمك .. لكنه ظل يدور حول صخرة القربان، في المواعيد التي تعلمها .. مواعيد الفايكنج لتقديم القرابين ..

إن مذاق الفتيات الحسناوات ظل حيًا في ذاكرته، وقد ظل يأمل أن تعود تلك الأيام ..

هل لديك أية أسئلة ؟!..

قلت بعد أن تنحنحت لأنظف حنجرتي:

ـ هل هو نفس وحش الفايكنج ؟.. أعني كيف يعيش كائن حيّ من عصر الفايكنج حتى اليوم ؟.. حوالي ثمانية قرون ..؟!..

قال السير (جيمس):

ـ ربما كان هناك أكثر من واحد يتناسلون فيما بينهم، ويورثون ذرياتهم ذكرى مبهمة عن صخرة القرابين ..

وربما كان نفس الوحش، وهو في حد ذاته ظاهرة علمية، فلم لا يكون عمره هو نفسه ظاهرة أخرى ؟!.. إن [illegible]

قلت فى حيرة :

ـ والقلادة؟.. لابد أنه كان يبتلعها فى كل مرة.. فكيف..؟

ـ كانوا يصنعون قلادة فداء جديدة فى كل مرة.. هذا ليس صعبًا ولا مكلفًا..

تفكرت حينًا فى كلامه.. ثم قلت فى ارتياح :

ـ الواقع أن نظريتك تبدو متماسكة.. واسمح لى أن أضيف إلى ذلك أن سفن الفايكنج التى كانت تجوب بحر الشمال، كانت تحمل فى مقدمتها نحتًا خشبيًا لرأس وحش يشابه تخيلنا لـ(نيسى).. كأنهم أرادوا أن يرضوا (أودين)، أو يخدعوا الوحش كى لا يهاجمهم..

لابد أنه كان مرعبًا حين يبرز لسفنهم فى ظلام الليل، وسط بحر الشمال الرهيب..

وارتجفت حين تخيلت المشهد.. لحسن الحظ أننى لم أكن هناك..

قال سير (جيمس) وهو يجمع أوراقه :

ـ لكنى لم أقل بعد أخطر ما فى الموضوع... لقد سُرقت القلادة والبوق من الكومندور (جولد) فى ظروف غامضة..

ـ سرقت؟

ـ نعم.. ثم استجد شىء آخر، هو أن الوحش صار يظهر فى أوقات غير منتظمة... أى أن هناك من يستعمل البوق ليناديه كلما أحبَ ذلك..

ـ ولأى غرض..؟

ـ هذا هو ما أعطيتك لمحة عنه ليلة أمس..

لقد زرنا الصخرة منذ أسبوعين ـ أنا و(ماجى) ـ فوجدنا سلسلتين مثبتتين بالصخر، وتتدليان فى الماء.. جذبنا السلسلتين لنعرف.. فماذا وجدنا؟

قلت فى هلع :

ـ لا.. لا تقل..

ـ نعم..!.. كما فهمت أنت!.. كفين ومعصمين مقيدين بالسلاسل، وقد بُترا تمامًا.. إنهما ما تبقى من إنسان نهشه الوحش بالكامل، وترك الجزء المقيد لأنه لم يستطع انتزاعه.. كانت اليدان رقيقتين مما يوحى أنهما لفتاة..

وفى البلدة كان البوليس يبحث عن شقراء تُدعى (جوسلين)، اختفت منذ ثلاثة أيام، ولم يعرفوا لها أثرًا...، وبالطبع لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كى يعرف أين ذهبت (جوسلين) هذه..

صحت فى تقزز وأنا أشعر بالعالم يدور من حولى :

ـ سير (جيمس) ..!.. هل .. هل تعنى أن هناك من عاد يمارس تقديم القرابين البشرية لوحش (لوخ نس)؟

ـ بالفعل.. وسواء كان هذا الشخص سفاحًا، أو مجنونًا، أو عالمًا مخبولاً، فالنتيجة واحدة.. وهو يعرف مانعرفه بالضبط.. إنه يخطف الفتاة ويقيدها على الصخرة، ثم ينادى الوحش بالبوق ليبعثها إلى (فالهالا)(*)..

ـ يا للفظاعة!

أضاف السير (جيمس) وقد اكتسب صوته نبرة درامية لا داعى لها:

ـ الملحوظة الأخيرة، هى أن هذه الفتاة من أصل سويدى.. أى أن أجدادها كانوا من غزاة الشمال..!

* * *

(*) (فالهالا): هو الاسم الذى كان يطلقه الاسكندنافيون والجرمان على العالم الآخر.. وكان الأخيار فى عقيدتهم يدخلون الفردوس فيجلسون على موائد عليها لحوم الخنزير البرى التى لا تنفد ويشربون اللبن المقدس من عنزة (هايدروكس)..
أما الأشرار والخونة فيذهبون إلى مملكة الجحيم (نيفلهايم) حيث يلاقون أعتى ألوان العذاب..

٦ ـ القبو ..

جالسًا بجوار (ماجى) فى غرفة الجلوس فى تلك الأمسية، شعرت بدهشة غير عادية وانبهار لا حد له بها..

هذه الفتاة الرقيقة ـ أو المرأة الرقيقة ـ التى لم تزل متعلقة بى، تخفى فى أعماقها قوة هائلة، لم أتخيل أنها لديها.. هى تعرف كل ما تعرفه، ولم تخبرنى به.. هى تدير مشروعًا عملاقًا لمراقبة قناة (كاليدونيا) بالموجات فوق الصوتية، دون أن تثرثر عن ذلك طيلة الوقت.. هى شاهدت ذلك المنظر البشع على صخرة القربان ولم تنهر.. ولم تفقد عقلها..

غريبة أنت يا (ماجى).. وإن غموضك ليفوق كل قدراتى على التوقع..

قلت لها:

ـ لماذا لم تخبرينى..؟

ـ بم ...؟

ـ بما قاله لى والدك اليوم.. عن الوحش..

قالت فى حذر وهى تنظر لعينى نظرة ثابتة:

- حسن .. ما الذى قاله لك بالضبط ..؟ . ما الحد الذى وصل إليه علمك؟

مرة أخرى تثير إعجابى .. إنها تخشى أن يكون كلامى محاولة لجعل لسانها ينزلق .. المهم أننى شرعت ـ دون حذر ـ أخبرها بكل ما قاله لى السير (جيمس) وهى تصغى دون تعليق .. ثم سألتها فى عتاب :

- لماذا لم تخبروا البوليس بما وجدتموه على الجزيرة؟.. إنهم أقدر منكم على العثور على سارق البوق والقلادة .

ابتسمت فى غموض وقالت :

- إن البوليس لن يعثر أبدا على السارق ، لأنه لم يترك أثرا ..

- على الأقل يمكنهم مراقبة الصخرة لمنعه من قتل فتاة أخرى ..

- (رفعت) ..!.. أنت لا تفهم .. إن لدينا هدفا أكبر من كل هذا .. فلا تجعل أبى يندم على إخبارك بما لم يكن ينبغى أن تعرفه ..

تنهدت فى ضيق ، قائلا :

- حسن .. لقد انتهت هذه العطلة ، وسأعود غدا إلى (أدنبرة) فلا دخل لى بمشاريعكم المريبة ..

قالت فى حنان اوشكت أن أنسى مذاقه :

- لقد وعدتنى أنك باق للأبد .. على الأقل تستطيع أن تظل معنا هذا الأسبوع ؛ لأن أبى لن يعود إلى (داندى) غدا ..

ثم مدت سبابتها إلى ذقنى .. وأردفت :

- ثق بنا يا (رفعت) .. ثق بنا .. هه !..

ساد الصمت بضع دقائق فيما عدا دقات الساعة ... نهضت ومضيت أسير فى الغرفة واجما .. أذرعها هنا وهناك . حتى توقفت أمام لوحة زيتية شنيعة معلقة فوق المدفأة . تمثل راعيا يعزف لحن حب لحبيبته ... تأملت اللوحة هنيهة ، ثم استدرت ... وهنا تذكرت شيئا .. فعدت أتأمل اللوحة .. إن هناك آثار كف مرسومة بعناية . على معالم اللوحة .. كأن يدا اعتادت ضغط اللوحة فى هذا المكان ، مما أدى بالعرق والاحتكاك إلى ذوبان بعض من الطبقة الزيتية عليها ..

لم أتردد ومددت كفى إلى نفس الموضع .. وضغطت ..

كان قابلا للانضغاط .. وسرعان ما شعرت أن رافعة ميكانيكية من نوع ما تتحرك .. وبرغم الصدأ والقدم المخيم على الموضوع كله ، انزاح الجدار الخلفى للمدفأة ، محدثا صريرا يؤلم الأسنان .. وتبدى لى ما يشبه البئر الذى نحتت درجات فى جداره ..

نظرت لـ (ماجى) متسائلا .. لكن نظراتها كانت صريحة فى دهشتها .. لم تكن تعرف شيئا عن هذا الباب السحرى بالفعل ... فقلت لها :

ـ إنه شيء نمطى جدا فى القصور الاسكتلندية .. الباب السحرى المؤدى إلى مخرج ما .. لكن هل يعرف أبوك به ؟!

هزت رأسها فى حيرة :

ـ لا أدرى .. أنا أعرف أن هذا القصر ملىء بالممرات السرية ، لكنى لم أر أحدها من قبل ... يا للغباء !.. لقد أمضيت كل حياتى أتساءل عن سر هذا الكف على اللوحة .. لكنى لم أحاول أن أضغط عليها ، ولا أعتقد أن أحد الخدم قد حاول .. فقط بمنفضة الغبار بالطبع ..

ابتسمت متشفيا ، ثم إننى نزعت جاكت الحلة الذى أرتديه ، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق المدفأة ، وأشعلتها بعود ثقاب ..

ـ ولكن .. إلى أين تظن أنك ذاهب ؟

قلت وأنا أدس بجسدى فى المدفأة :

ـ سؤال غريب .. لست ذاهبا إلى (ديزنى لاند) على أى حال ..

قالت مرتاعة وجسدها يرتجف :

ـ أليس من الحكمة أن تنتظر حتى نخبر (دادى) ..؟!



ابتسمت متشفيا ، ثم إننى نزعت جاكت الحلة الذى أرتديه ، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق المدفأة ، وأشعلتها بعود ثقاب ..

نظرت إليها نظرة ذات معنى .. وقلت :

ـ يا ملاكى .. لست من هؤلاء الأشخاص أقويـــاء العزيمة ، الذين يجدون ممرًا سريًا فى قصر اسكتلندى عتيق ، ثم يحجمون عن دخوله .. ، إن هذا أقوى منى ..

صرخت فى حدة :

ـ انتظر ..!.. سألحق بك .. يجب أن أتأكد أنك لن تموت ..!

ـ ولكن ..

وقبل أن أفهم كنا قد دخلنا البئر ـ أنا وهى ـ ننزل الدرجات الصخرية ، وأنا أحاذر حتى لايلتهم لهيب الشمعة أطراف ثوبها .. ، وكانت الدرجات قليلة لحسن الحظ .. ، وفى أسفل البئر كان هناك قبو طويل تفوح منه رائحة العطن .. و ....

كلانج ..!!

ما هذا الصوت ؟!.. وما سر الظلام الذى ساد القبو فجأة ..؟

نظرت (ماجى) لأعلى ، ثم قالت :

ـ لاشىء ..!.. لقد انغلق الجدار الحجرى خلفنا !

يا لى من مغفل !.. لقد كان الباب يفتح لفترة محدودة ، ثم ينغلق بعدها .. لماذا لم أبقها فى الخارج ، أو أضع شيئًا

يعوق انغلاق الجدار ..؟!.. إنهم يتذكرون هذه التفاصيل دائمًا فى السينما ، لكننى لست بطل فيلم سينمائى ، لهذا لم أكن مدربًا على هذه الأمور ..!!

والآن ها نحن أولاء واقفان فى هذا القبو المجهول ، ولا سلاح لدينا ولا مصدر ضوء سوى هذه الشمعة ..!

ـ (ماجى) ياملاكى .. أخشى أننا فى مأزق حقيقى ..

التمعت عيناها فى الظلام على ضوء الشمعة .. وصفقت بيديها فى مرح هاتفة :

ـ إنها أروع تجربة فى حياتى ..!.. تخيل أنا وأنت فى هذا القبو المرعب .. معًا نتحسس الجدران ونرتجف .. ونمشى فى الوحل بين جثث الفئران وعظام من سبقونا .. ، ثم يشتد بنا الجوع والظمأ .. عندئذ تتمزق أنت من أجلى .. وتخلع قميصك كى تسترنى به من البرد .. ثم ينتهى بى الأمر وأموت بين ذراعيك ..!

.. أليس هذا رائعًا ؟!..

ـ .. يا لك من بلهاء تمامًا ..!.. إن للنساء قدرة غير عادية على العثور على الرومانسية فى مواقف لاتعنى للرجال سوى مصيبة ..

ـ ثم إنك تموت بعد ساعات حزنًا علىّ .. وتتحلل جثتانا ، وبعد مئات الأعوام حين يكتشف أحدهم هذا القبر ،

سيجد هيكلين عظميين متشابكي الأكف .. عندئذ يحاول فصلهما فيستحيلان إلى تراب!

قلت متهكمًا:

- نعم ..!.. مثل (إزميرالدا) و (أحدب النوتردام)!(*) .

- نعم .. هل قرأتها؟.. إنها مؤثرة إلى حد البكاء ..

لم أعرف ما أفعله .. هل أخنقها ، أم أمزقها ، أم أكتفي بتوجيه لكمة إلى أسنانها؟ اكتفيت بأن قلت لها:

- لم يزل هناك بعض الوقت قبل هذه النهاية الرائعة ، لهذا أرى أن نتحرك الآن .. هذا المكان ليس شاعريًا إلى درجة الموت ..

قالت - وقد استعادت صوابها - وهي تنظر لأعلى:

- ولكن لابد أن هناك مخرجًا من هذه الجهة ..

- هذا معقول .. إن من يبتكر طريقة للدخول ، يبتكر طريقة للخروج ..

وشرعت - أنا وهي - نتحسس حجارة الجدار حجرًا حجرًا ، ونضغط على كل نتوء وكل حجر يتحرك ... وخبطنا

(*) أحدب النوتردام رائعة الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو .. في نهاية القصة تموت الغجرية الحسناء (إزميرالدا) فيصر الأحدب (كوزيمودو) على أن يدفن معها .. وتنتهي القصة بموقف الهيكلين العظميين المتشابكين كرمز لخلود الحب ..

بكعوب أحذيتنا على كل رقعة في الأرضية ، وتسلقت السلم مرة أخرى كي أعيد استكشاف الجدار .. دون جدوى ..!..

قالت (ماجي) وقد عادت الجدية لملامحها:

- لو بقينا في هذه المحاولات الخرقاء فسنموت حتمًا .. يبدو أنه لامفرّ من السير في هذا الدهليز إلى آخره ..

- ولكن الشمعة ..

أخرجت منديلًا حريريًا من جيب ثوبها ، ثم بللته بلعابها بأن كوّرته وحشرته في فمها بضع دقائق .. وقربت منه لهب الشمعة فأخذ يشتعل ببطء شديد بسبب البلل ..

- هكذا .. والآن أطفئ شمعتك إلى حين الحاجة إليها ..

قلت لها في انبهار:

- من علمك هذه الطريقة؟!

قالت وهي تمسك المنديل المشتعل بطرف أناملها ، وتضعه فوق قطعة عظم:

- في الحرب العالمية الأخيرة ، كانت ربات البيوت في لندن وباريس - توفيرًا للطاقة - يستعملن أوراق الجرائد المبتلة لإشعال الموقد .. وكانت جريدة واحدة تكفي لطهو وجبة لأسرة كاملة ..!

كان عمري ثلاثة عشر عامًا وقتها ..

- آه يا عزيزتي ..!.. كيف أستطيع أن ألعب معك دور

الرجل الذى يحمى، فى حين يبدو لى أنك من ستتولين حمايتى ؟!..

فى صمت شققنا طريقنا فوق أرضية وعرة .. وكانت هناك فئران تمرح فى حرية تامة ... وبقع ماء آسن على الأرض يبدو أنها نتجت عن تراكمات الرطوبة عبر القرون..

سأظل أذكر ما حييت مسيرتنا الواجمة، وهى تسبقنى بخطوة حاملة المنديل المتوهج يلقى بظلال غامضة حولها -ولكم أخشى الظلال الغامضة!- كأنها قادمة من عالم آخر، تقودنى إلى ما لم يره بشر قبلى... هل كان (دانتى) يشعر بنفس شعورى، و (بياترس) تقوده فى ظلمات العالم الآخر ؟!.. (*).

وهنا بدأنا نلمح ما توقعته هى فى مزاحها من دقائق.. عظامًا آدمية ملقاة فى إهمال بين الصخور، مختلطة بعظام فئران.. لم أشأ أن أخبرها أن لهذا معنى واحدًا : أنه لا يوجد

(*) (دانتى اليجيرى) شاعر إيطالى عبقرى من عصر النهضة، كتب ملحمة الكوميديا الإلهية، وفيها تخيل أن حبيبته (بياتريس) -التى سبقته فى الموت فى سن الشباب- تهديه فى العالم الآخر وتريه كل شىء هناك. والقصيدة تشابه فى وجوه عدة (رسالة الغفران) للشاعر (أبى العلاء المعرى)..

مخرج من هذا القبو... وأن هؤلاء التعساء قد حاولوا قبلنا وفشلوا.. التهموا الفئران حية والتهمتهم الفئران أحياء..
لاشك أن هذا القبو كان سجنًا يُلقى به أعداء الإقطاعى مالك هذه القلعة، حتى يتعفنوا أحياء..

لكن (ماجى) كانت ذكية.. ذكية إلى حد مرعب..

لهذا قالت لى فى كآبة :

- (رفعت) .. هل تعرف ما أظنه ..؟
- نعم..
- إننا لن نخرج أحياء من هذا القبو..!

* * *

٧ ـ الورطـــة ..

مشكلة أسلوب (المتكلم) الذى أستعمله فى سرد قصصى، هو أنه يطمئن القارئ تلقائيًا على أننى سأنجو من كل مأزق أمر به،وإلا فما عشت كى أحكيه على لسانى..!.. ولو كنت أكتب بضمير الغائب، على غرار: ذهب.. جرى.. خاف.. لما كان القارئ متأكدًا من سلامتى إلى هذا الحد!..

نعم.. أعترف أننى نجوت من كل مأزق حياتى، حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها.. وأعترف أننى لم أمت أبدًا حتى اليوم!..

لكـــن أى رعب وأى هلـــع مررت به فى كل هذه الورطات!..

* * *

خذ عندك على سبيل المثال..

مسيرتى فى القبو المظلم خلف (ماجى) ولهب المنديل يتراقص.. وظلال غامضة تتلاعب فوق الجماجم المتناثرة هنا وهناك، كأنها تتحرك وتبتسم..

كيف تريدون منى أن أتوقع أننا سننجو..؟

كانت المشاهد تتشابه.. ولابد أننا سرنا مسافة كيلو متر كامل فى هذا القبو الأبدى، حين توقفت (ماجى) هامسة:

ـ لن أستطيع السير أكثر..

وجلست على الأرض بفستانها الأنيق، وخلـــعت حذاءها.. وهى تلهث:

ـ إننى أموت من البرد برغم أننا فى شهر يوليو..

ـ هذا بسبب الرطوبة..

وجلست بجوارها على الأرض وخلـــعت قميصى ووضعته فوق كتفيها، وأنا أقول فى تشف:

ـ رومانسى.. أليس كذلك؟!

ـ اخرس..!

ثم قالت فى تقزز من بين أسنانها:

ـ سيكون علينا أن نتعلم أكل الفئران..!

ارتجفت من هول الفكرة.. فقلت مبتلعًا ريقى.

ـ أفضل الانتظار أسبوعًا دون أكل، حتى أستطيع تقبل الفكرة..!

قالت وكأنها تبصق:

ـ لو لم تتحامق وتدخل ذلك الباب السرى اللعين لما كنا هنا..

قلت:

ـ ولو لم تتبعينى فى غباء لكنت أنقذتنى..

قالت وهى تتكور حول نفسها كالقطة وتلتصق بى :

ـ سننتظر هنا حتى الصباح .. أطفئ هذا المنديل ؛ لأننا لن نحتاجه مؤقتًا .. أرجو أن يكون معك ما يكفى من الثقاب ..

ـ بالطبع عدد قليل جدًا .. القصة دائمًا هكذا .. ، إن الأشخاص الذين يملكون علب ثقاب مليئة ، لا يضلون طريقهم فى ممرات مظلمة أبدًا ..

ـ يا لك من نحس .. !

أطفأت المنديل وتكورت حول نفسى ، وشرعت أدندن .. أدندن بصوت خفيض نشاز أغنية عربية حزينة .. ، وفى الظلام سمعت صوت تنفسها المنتظم بجوارى ..

لقد نامت البائسة ..

* * *

حين استيقظنا ، كانت العقارب الفوسفورية لساعتى تشير إلى التاسعة صباحًا .. وكانت جالسة تتخلل خصلات شعرها المبعثرة بأناملها ، فى محاولة لتنسيق شعرها بشكل ما .. ابتسمت فى سخرية وقلت :

ـ ها هى ذى (حسناء الجب) تبدأ يومها .. !

قالت والنوم لم يفارق صوتها :

ـ إذا كان شكلى عند الاستيقاظ يشابه شكلك الآن أيها

المتشرد ، فإننى أرى ألا نتزوج أبدًا .. ! ما ذنب أطفالنا كى يروا آباءهم مرعبين هكذا .. ؟

كدت أرد برد لاذع ، لولا أننى لاحظت شيئًا .. فصحت من فورى :

ـ (ماجى) ! .. هل لاحظت ؟ .. لقد رأيتك ورأيتنى !؟ .. إن الظلام قد صار أقل كثافة فى النهار .. أمس لم أكن أرى يدى نفسها ..

ـ وهذا يعنى ..

ـ أن هناك نورًا يدخل هذا القبو من مكان ما .. صحيح أنه لم يزل ضعيفًا جدًا لكنه موجود .. وسنجده .. !

وهكذا ـ ودون إفطار ودون غسيل وجه ـ نهضنا فى ثقة وواصلنا مسيرتنا دون حاجة لإشعال شىء .. ، لم يكن هناك شك فى أن النور يتزايد فى كل خطوة نخطوها للأمام ..

وفجأة قابلنا ما لم نعمل حسابه بعد .. الممر يتفرع إلى ثلاثة ممرات أكثر ضيقًا وكلها يغمرها نفس الضوء الخافت .. يا لها من مشكلة .. ! .. ، اخترنا الممر الأوسط .. وسرنا معه بعض الوقت ، فوجدناه يتفرع إلى ممرين .. هنا أمسكت بيدها كى أمنعها من الاستمرار ، وقلت :

ـ كلا .. إن الأمر يتحول إلى متاهة حقيقية سنضيع فيها للأبد .. يجب أن نكون منظمين ..

أولا ـ سنتبع أسلوب (ثيذيوس) الشهير ..

ـ ومن هو ؟!..

ـ إنه البطل الإغريقى، الذى دخل المتاهة (لابيرينث) فى جزيرة كريت كى يقتل (المينوطور) ذلك الوحش الذى كان نصفه العلوى لثور، والسفلى لإنسان.. لقد ربط (ثيذيوس) خيطًا فى بوابة المتاهة كى يعرف دائمًا النقطة التى يعود إليها .. وبهذا لم ينته كمن سبقوه ..

سنرسم على الجدران ـ حفرًا ـ خطوطًا تحدد لنا الممرات التى مررنا بها .

ثانيًا ـ يجب أن ننفصل ليستكشف كل منا فرعًا من هذين الفرعين على حدة، على أن نلتقى هنا بعد ساعتين مهما كانت الظروف ..

قالت (ماجى) :

ـ وليعمل من يجد مخرجًا على أن يرسم فى أثناء عودته خطوطًا متعرجة كى تختلف عن أية خطوط رسمها فى ممرات أخرى ..

ـ فليكن .. ناولينى قلمى من جيب القميص .

وكسرت قلمى نصفين يصلحان للحفر فى الجدران، وناولتها نصفًا .. ثم تمنيت لها حظًا سعيدًا وافترقنا ..

الآن يجب أن أسرع .. لقد اخترت الممر الأيمن الذى

قادنى إلى ممرين آخرين .. اخترت الأيمن، وسرت وراءه بعض الوقت، إلى أن وجدته مسدودًا بجدار صخرى ..

عدت أدراجى لنقطة التفرع، واخترت الممر الأيسر .. وسرت فيه دقائق إلى أن وصلت لنقطة يتفرع فيها إلى ثلاث ممرات .. فاخترت الأوسط .. وهكذا .. تستطيع أن تتخيل تعقيد ما قمت به .. إنه أمر منهك على الورق، فما بالك به وأنت تمشى طيلة الوقت فوق صخور مدببة .. وأنفاسك تتلاحق .. وطرف القلم المكسور يدمى أناملك ؟!..

ترى أى عقل سادىّ مخبول صمم هذه الممرات ؟!

مضى نصف الساعة وأنا فى هذه المتاهة .. وفجأة لمحت .. لمحت آثار أقدام .. أقدام واضحة فوق الغبار الطرى، الذى بدأ يغلف الصخور ..!.. أقدام ليست لى ولا لـ(ماجى) لأنها كبيرة جدًا ..

وبدأت أتتبع الأقدام ـ دون أن أنسى رسم علاماتى ـ وقلبى يرتجف .. لا يمكن أن تكون آثار أقدام أحد هؤلاء الموتى المتحللين، لأنها حديثة وطرية وصاحبها يرتدى حذاء عصريًا ..

النور يزداد .. ويزداد ..

وأخيرًا ..!

هاهى ذى ضالتى ..!.. نافذة مفتوحة فى الصخر،

مسدودة بقضبان من الصلب ـ نشرها أحدهم لحسن الحظ ـ ومنها يخرج النور الذى رأيته داخلا القبو الكئيب ..

اقتربت من النافذة لأرى ما تطل عليه .. وعبر الفتحة الصخرية كان رذاذ الماء يتناثر .. إنها بحيرة (لوخ نس) الغافية أمامي فى شمس الصباح البهيجة ، كأجمل ما رأته عيناى ... وأسفل النافذة كانت هناك صخور الشاطئ .. وعلى مسافة ما كانت صخرة كئيبة المنظر ، تقف وحدها وسط الأمواج ، دون أن تعبأ بها ولا بى ..

وعلى الصخرة كان هناك عمود خشبى قديم ، تتدلى منه حبال ليفية .. لم يكن من الصعب أن أعرف أن هذه هى صخرة الفداء ، التى كلمنى السير (جيمس) عنها بالأمس .. بالأمس ؟.. هل كان ذلك بالأمس فقط ؟! ..

على كل حال لقد وجدت ضالتى ، ولم يعد أمامى سوى أن أعود أدراجى مع رسم خطوط متعرجة فوق تلك المستقيمة التى رسمتها عند مجيئى ، وأنتظر (ماجى) عند نقطة التفرع الأولى .. ثم نرحل معًا من هذا المكان ..

وصلت للنقطة التى بدأت منها ، وقد قاربت الساعة الحادية عشرة ..

وجلست على الأرض أنتظر (ماجى) وأنا أدندن تلك الأغنية العربية الحزينة ، وأفكر فى معنى هذا الذى وصلت إليه ..

من الواضح أن هذا الممر كان مسدودًا تمامًا بتلك القضبان الكريهة ، وكان قبرًا حقيقيًا لمن يقذفه الحظ العاثر فيه .. ثم جاء ذلك الرجل (الخيّر) الذى أزال القضبان ، ليمنح نفسه فرصة الخروج والدخول إلى القصر وقتما شاء ، وليتمكن من الوصول إلى (لوخ نس) بسهولة وسرية .. غير عالم بالطبع أنه يمنحنا فرصة الحياة ..

من هو ذلك الشخص ؟.. وما غرضه ؟.. لا أدرى ، ولا يعنينى أن أدرى فى الوقت الحالى ..

ولكن ..

لقد جرفتنى خواطرى خلفها ، وفاتنى أن الوقت قد مرّ سريعًا .. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ولم تعد (ماجى) .. هل ممراتها متشعبة إلى هذا الحد أم أنها قد نسيت رسم العلامات بحماقة .. أم أنها لاقت خطرًا ما ـ حفرة أو صخرة منهارة ـ أخرتها عنى ؟!

ثعابين القلق تنهش قلبى ... ولم يكن هناك بُد من أن أتبعها ..

نهضت من مكانى وبدأت أسير فى حذر فى الممر الذى اختارته ، وكانت خطوطها دقيقة واضحة ومنتظمة على الجدار ، حتى أننى تخيلت يدها البلّورية وهى تخطها منذ

ساعتين .. حنين غريب يبعث على التشاؤم يغزو روحي تجاه تلك الخطوط، كأن من رسمتها لن تعود ..

كانت الشبكة معقدة بالفعل، لكني سرت وراء الخطوط التي لم تتوقف .. ولكن ..

هل أنا أتخيل ..؟

كلا .. إن قطرات الدم المتساقطة على الأرض هذه، لايمكن إلا أن تكون حقيقة !! ..

إنه دم (ماجي) ..

* * *

٨ - نهاية لغز ..

(ماجي) ياملاكي ! .. أقسم إنني سأمزقهم جميعًا .. ! .. سأذبحهم وسأنثر أشلاءهم في بحر الشمال، كي تتلذذ بها الوحوش الغامضة جميعًا ..

شرعت ألهث وأنا أجري خلف آثار الخطوط التي تركتها .. وقطرات الدم التي تظهر حينًا وتختفي أحيانًا .. أفكاري مضطربة والهلع يشلني .. وأنا ألهث من بين أسناني بعبارات السباب والتهديد (لهم)، وأنا لا أدري من (هم) بالضبط .. كنت أريد أي شيء أصب عليه غضبي، فلم أجد خيرًا من أن أوجد أشخاصًا وهميين لا وجود لهم كي ألومهم ..

خطواتي تتسارع .. عضلاتي تتقلص .. أنفاسي تضيق ..

سأجدها ميتة بلا شك في أية لحظة عند أقدامي .. وسأنحني فوقها وأريح رأسها على ركبتي، فتقول لي شيئًا ما لاأتبينه .. ثم تدير وجهها وتموت !

آه .. ! .. إن تخيل هذا المنظر يجعلني أجن !! ..

وتتسارع خطواتي ودقات قلبي ..

وهنا اصطدمت بشىء.. وسقطنا على الأرض معًا.. نهضت مستعدًا للقتال لكنى وجدتها هى.. (ماجى)..!.. شرعت أصرخ فى هستيريا والدموع تتسارع إلى عينى، وحاولت أن أفسر لها.. إلا أنها قالت فى ملاطفة كما تحدث حصانًا جامحًا:

ـ هيه..!.. لاشىء!.. لا تخف يا صغيرى..!.. لم يحدث شىء..

وأشارت إلى يدها المربوطة بقطعة من قميصى الذى ترتديه:

ـ لقد جرحت يدى بقلمك المكسور.. هذا كل ما هنالك.. هيا.. اهدأ..

وهنا ـ أخجل من الاعتراف ـ انهارت أعصابى تمامًا فشرعت أبكى كطفل.. مما أصابها بالذهول.. شرعت تربت فوق كتفى بحنان.. ذلك الحنان الذى لا تمنحه سوى امرأة، ولا يفهمه سوى رجل... إنهن أمهاتنا هؤلاء النساء.. ولسنا ـ مهما كبرنا ـ سوى أطفال شديدى التعاسة، خرجنا لتونا من أرحامهن..

ـ هيا..!.. لا تخش شيئًا..!.. كل شىء سيكون على مايرام.. ابك!.. ابك!.. ستشعر أنك أفضل..

وبعد أن زالت العاصفة، وبدأت أهدأ شرعت أحكى لها

ما فعلته طيلة الساعتين، وأننى وجدت المخرج، وأننى ظننتها قتلت أو جرحت، وأننى... أحبها كما لم أحب أحدًا فى حياتى!

قالت لى فى لهجة عملية:

ـ كل هذا جميل.. لكن هناك اكتشافًا أكثر غرابة وأهمية وجدته أنا.. تعال معى ولكن أولًا..

ومدت إلى يدها بقطعة قماش مزقتها من قميصى الذى ترتديه.. وقالت:

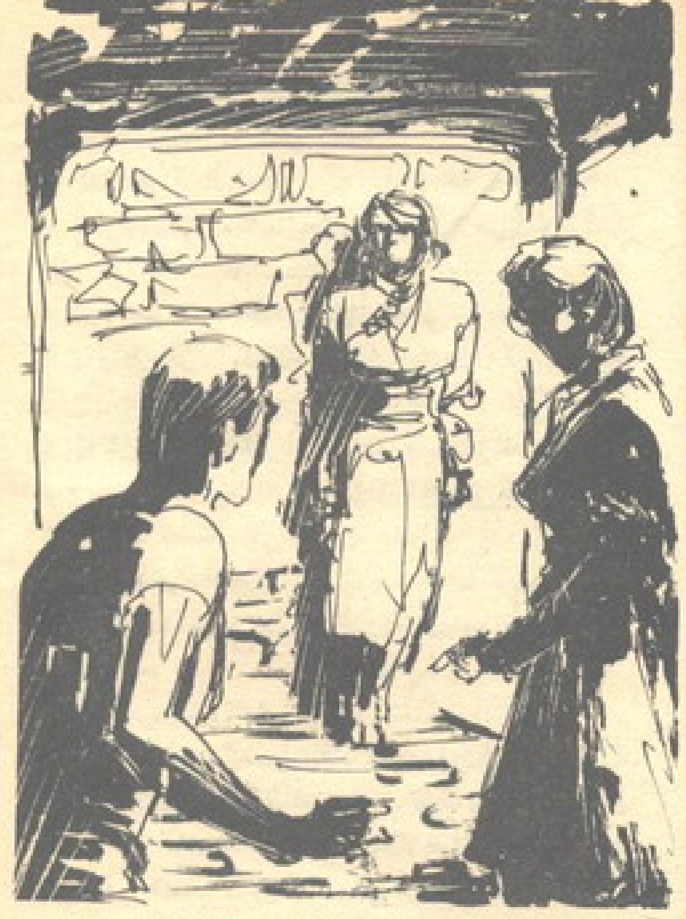
ـ تمخط أولًا.. لا أحب الأطفال الذين يتدلى المخاط على أنوفهم..!

ـ حسن.. فـفـفـف!!

ـ هكذا..

وفى صمت سرت خلفها فى ذلك الممر الضيـــق الغريب.. لقد بدأ يتسع.. ويتسع.. ثم.. وجدت نفسى فى غرفة كبيرة حجرية مضاءة بشكل جيد..

هل تعرف منظر غرفة دفن الفرعون فى الهرم الأكبر..؟.. إنك إذا كنت تعرفها، فقد وفرت علىّ مجهود وصف تلك الغرفة.. أما إذا لم تكن قد رأيتها، فتلك مشكلتك.. إننى منفعل ولن أستطيع أن أتكلم كثيرًا..!



في ركن من الغرفة كانت هناك .. واقفة مصلوبة إلى الجدار ، تلك الفتاة الشقراء التي لا يمكن أن تكون إنجليزية ..

في ركن من الغرفة كانت هناك .. واقفة مصلوبة إلى الجدار، تلك الفتاة الشقراء التى لايمكن أن تكون إنجليزية ... وكانت منهكة تمامًا وعلامات ضرب مبرح على وجهها ... قالت (ماجى) فى فخر :

ـ هوذا اكتشافى ..

ثم انحنت تجاه الفتاة كأنها تقدم أحدنا للآخر فى حفل تعارف :

ـ أقدم لك الآنسة (إيريكا سجفريد) القربان القادم لوحش (لوخ نس) ..!

أصابنى الذهول .. إلا أننى بدأت أفهم ما هنالك .. لهذا التفت نحو الفتاة المقيدة، وسألتها وقد أعطانى رنين اسمها فكرة معينة :

ـ هل أنت دانماركية ؟!..

خرج صوتها محشرجًا .. وبإنجليزية كسيحة قالت :

ـ أنا نرويجية .. أدرس الأدب الإنجليزى فى أدنبرة ..

صاحت (ماجى) فى حماسة :

ـ هل ترى ؟.. شقراء ومن أصل اسكندنافى .. اختطفها ذلك السفاح إلى هنا .. وقيدها .. وأطعمها انتظارًا لموعد الفداء .. و...

بضيق قاطعتها :

ـ ألا ترين تأجيل هذه المحاضرة ، حتى نفك قيود هذه التعسة ؟.. لماذا لم تفعلى ذلك ؟..

قالت فى بساطة :

ـ ليس معى أداة تصلح لفك هذه السلاسل أولا .. ثم ان يدى مجروحة .. هل نسيت ؟!

ثم ربتت على عضلاتى الهزيلة فى سرور :

ـ والآن لنر ما سيفعله (بطلى) مع هذه القيود .. هيا .. فلنر ..

احتقن وجهى وشرعت أحاول فك هذه السلاسل دون جدوى .. كل ما سأفعله هو تمزيق معصمى هذه البائسة ، التى أخذت تضغط على أسنانها وتئن ..

وبعد عشر دقائق كنت قد انتهيت تمامًا .. تمزقت كفاى وسال الدم منهما ، من ثم أطرقت برأسى خجلا معلنًا ألا جدوى ..

ـ دعنى أحاول أنا ..

ومدت (ماجى) سن القلم الحبر فى قفل السلسلة ، وشرعت تعبث هنا وهناك ، حتى .. كليك !.. انفتحت حلقة القفل فى سلاسة .. وشرعت تفك السلسلة عن عنق ومعصمى الفتاة النرويجية ،وهى ترمقنى بتشف ، قائلة :

ـ ليس فى جعبتك سوى القوة الغاشمة .. وليتها تجدى!

جلست الفتاة منهارة على الأرض ، وشرعت تحكى قصتها ..

إنها ـ كما قلت آنفًا ـ طالبة لغات فى (أدنبرة) ، وقد تعرفت شابًا من أصل نرويجى ، قال إنه يدرس الطب هناك ، ودعاها إلى بيته ، ثم إنه اختطفها بعد أن خدرها .. ونقلها إلى هنا .. وحين أفاقت ، وجدت نفسها مقيدة فى هذا الوضع ، وأنه كان يطعمها بانتظام .. وينصحها أن تعد روحها للفداء الأعظم ، الذى يليق بأرواح أسلافها ، والذى سيتم بعد أسبوعين حين تمنح جسدها ـ سعيد الحظ ـ كى يلتهمه وحش (لوخ نس) ..

ـ وهل كان موجودًا معك بانتظام ..؟

ـ كلا .. كنت أراه مرتين فى اليوم خارجًا من ظلمات القبو .. لا أدرى من أين يجىء وإلى أين يذهب ..

قالت (ماجى) فى تهكم :

ـ وهل هذا سؤال ؟!.. بالطبع يجىء من غرفة الجلوس فى قصر أبى وإليها يعود .. لابد أنه كان يزورك فى الفجر وعند منتصف الليل ، حين يخلو القصر من أصحاب الأسئلة المحرجة ..

قلت لـ (ماجى) :

ـ هل تظنين ذلك ؟.. وكيف كان يدخل القصر ؟

- إنه لم يحتج قط لدخول القصر ..
- ماذا تعنين ؟..
- أعنى أنه كان هناك دائمًا .. أعتقد يا حبيبتى (إيريكا) أن هذا الرجل كان أزرق العينين، له شارب أصفر كث، وشعر أشقر طويل .. باختصار مثل الفايكنج كما نراهم فى القصص المصورة .
- بالفعل .. واسمه (آنفريد)... (آنفريد هولثروب) ..
- إنه خادم عندنا فى القصر .. وكان يأخذ إجازات كثيرة، يزور فيها (إدنبرة) ..
- ولابد أنه كان ينصب شباكه حولك، وحول تلك التعسة (جوسلين) ..

قلت لها فى حيرة :

- وما الذى يجعل عندكم خادمًا نرويجيًا ..؟
- وماذا فى ذلك؟.. إنه مهذب ومنظم، ويتحدث إنجليزية راقية جدًا .. وكان أبى يحب طابع وجهه الاسكندنافى كثيرًا ..

قلت لها :

- إن الخيوط تتجمع الآن ..

إن هذا الخادم كان يعمل عندكم .. وفى ذات ليلة يسمع محاورة بين أبيك والمرحوم (جولد) عن وحش (لوخ نس) الذى كان الفايكنج يقدمون له القرابين .. ثم يرى البوق والقلادة والخريطة إياها ..

عندئذ يبدأ هذا الخادم يتبدل .. إننا لا نعرف الظروف ولا الملابسات التى أدت لتحوله .. هل هو اعتزاز مجنون بقوميته ..؟.. هل هى معتقدات وثنية تحركت فى عقله الباطن؟.. هل هى رغبة فى العبث؟.. هل هى رغبة فى التميز؟.. لن نعرف أبدًا إلا منه ..

المهم أن الفكرة اختمرت فى عقله ..، وهكذا .. يسرق البوق والقلادة، ويصمم على استغلال هذا النفق السرى - الذى وجده بالصدفة - فى مهمته الرهيبة ..

لقد كان أذكى منا حين دخل هذا النفق أول مرة .. ولم ينس أن يؤمن الباب خلفه .. ثم أدرك أن النفق يوصله لقرب صخرة الفداء .. عندئذ يقوم بنشر القضبان التى تسد النفق لتوفر له مخرجًا دائمًا .. ويبدأ فى خطف الفتيات الشقراوات، اللواتى ينتمين إلى نفس سلالته .. ويحبسهن هنا ..

إن النزعة الدرامية فى دمه، جعلته يعتقد أن وحش (لوخ نس) لن يلتهم سوى نفس نوع الضحايا اللواتى كان يلتهمهن فى الماضى .. الاسكندنافيات ..

حفيدات غزاة الشمال ..

وحين تأتى اللحظة ـ حسب حساباته ـ يقيد الفتاة للصخرة، ويقف عند قلعة (إيركهارت) وينفخ فى البوق ..

عندئذ يخرج الوحش ـ الذى تذكر نداء الطعام القديم ـ ليمارس باقى عمله وتنتهى المأساة ..

إنك قد ولدت من جديد يا آنسة (سيجفريد) ..

تهالكت الفتاة .. وأخذت ترتجف .. وتقول بين دموعها :

ـ لقد كان شنيعًا .. كان يأتينى وهو يردد أبيات شعر بلغة لا أعرفها .. ويدس أطعمة غريبة المذاق فى فمى ..، ثم يؤدى صلوات عجيبة ، ويجبرنى على أن أرددها معه .. فإذا رفضت صفعنى ..

ـ إنه كان يعدّ روحك للتضحية الكبرى ..

قالت (ماجى) فى عصبية :

ـ والآن لنخرج من هذا القبر المرعب .. لابد أن (دادى) سيموت قلقًا علينا .. ثم إن علينا أن نجد هذا السفاح قبل أن يشعر بشىء ..

ثم نظرت للفتاة فى حنان :

ـ هل تستطيعين السير معنا يا حبيبتى؟

ـ لا .. إن قدمىّ ميتتان تمامًا .. لم أحركهما منذ زمن ..

أشارت إلىّ (ماجى) وغمزت بعينها نحو الفتاة ..، اقتربت منها ، وهمست فى أذنها :

ـ (ماجى) لا تقولى إنك تريدين أن أحملها ..؟!

ـ ولم لا ..؟.. أنت رجلنا الوحيد للأسف ..

ـ ولكنها ثقيلة كالحوت .. لماذا لا تصدقين أننى لست (طرزان)؟!.. فى الأفلام الرديئة فقط يكون هناك رجل مفتول العضلات ، عريض المنكبين ، يجيد توجيه اللكمات وفك السلاسل ، ومصارعة الدببة ، وحمل الفتيات اللواتى لا يستطعن المشى ..

ـ (رفعت) !.. احملها ..!

ـ حسن ..

وهكذا حملت الفتاة ومضيت بها أترنح ، و (ماجى) تسير خلفنا .. على هدى العلامات التى رسمتها هى حتى نقطة التلاقى .. ثم على هدى الخطوط المتعرجة التى رسمتها أنا ، حتى النافذة الحجرية ..، ولم يكن صعبًا النزول على الصخور ومعنا الفتاة ..

كان بحر (لوخ نس) متلاطم الأمواج .. ومن بعيد لاحت لأعيننا الصخرة المشئومة إياها .. أشارت إليها (ماجى) ونظرت إلى الفتاة نظرة معناها : هل رأيت ماكان ينتظرك؟..

ارتجفت الفتاة وتصلبت أصابعها على ذراعى ..

لقد ربحنا المعركة ، ولكن هل نربح الحرب أيضًا؟!

* * *

٩ - إيوان فريــزر ..

كانت وجبة طعام شهية، تلك التى قدمها لنا السير (جيمس) بعد خروجنا من القبو، وكانت (إيريكا) المسكينة تلتهم الطعام كالمسعورين، فى حين أخذت (ماجى) تعبث فى الزبد بسكين الطعام، راسمة أشكالاً ما على حافة طبقها .. كانت شاردة الذهن تمامًا .

قال السير (جيمس) وهو يشعل سيجارًا :

ـ كلوا هنيئًا .. إنكم قد نجوتم بأعجوبة ..

قلت وفمى ملىء بالطعام :

ـ غريب أنك لم تعرف شيئًا عن هذا النفق .

ـ هذا طبيعى .. إن مخطوطات أسرتنا تتحدث عن عشرة أنفاق أخرى .. ولم تحدد أماكنها، كما أنها لم تتحدث عن كنز مدفون فى أحدها، فعلام أضيع وقتى إذن ..؟

رفعت (ماجى) رأسها عن الطبق كمن تذكرت شيئًا ما :

ـ دادى .. أين ذهب (آلفريد) ؟

هزّ السير (جيمس) رأسه فى ضيق .. ونفث الدخان من فمه :

ـ لم نجده .. فرّ الوغد ليلة أمس ..

قلت فى حيرة :

ـ ولكن كيف عرف أننا كشفنا أمره ؟!

ـ أنا ..

قالتها (ماجى) فى شىء من الخجل .. ثم مدت يدها إلى جيبها وأخرجت شيئًا .. بطاقة صغيرة من الــورق المقوى... وقالت شارحة :

ـ لقد لاحظتها بالأمس عند نزولنا النفق .. لكنى لم أعبأ بها ..

آه !.. إنها تلك الحيلة القديمة .. لقد دسّ الوغد هذه البطاقة فى شق الحائط، حتى إذا فتح أحدهم الباب، سقطت البطاقة .. عندئذ إذا أراد دخول النفق، ولم يجد البطاقة، يدرك أن أحدهم اكتشف النفق والفتاة ..

لهذا لم يقدم العشاء لـ (إيريكا) أمس .. كان على وشك نزول النفق حاملاً عشاءها، حين وجد أن الورقة غير موجودة .. عندئذ عرف أن أمره انكشف وولى الأدبار ..

قالت (ماجى) :

ـ ولكن .. ما الذى سنفعله الآن ..؟!

أحنى السير (جيمس) رأسه مفكرًا .. وبغموض تمتم :

ـ هو لن يكف عن المحاولة .. لم يزل معه البوق والقلادة والحلم المخبول ..

ـ إذن نبلغ البوليس ليراقب الصخرة ..

تفكر حينا ، ثم قال :

ـ كلّا .. ثمة فكرة أفضل ...

قلت وأنا التقط آخر قطعة لحم على المائدة ، وأقذفها فى فمي :

ـ هذا خبر طيب .. فإن رأسي يكاد ينفجر من الأفكار غير الجيدة ..

قال السير (جيمس) فى غموض :

ـ سأعرفكما الليلة على شخص نادر من نوعه ...

★ ★ ★

قال (إيوان فريزر) :

ـ إن عدد المعتوهين فى هذا العالم قد فاق تعداد البشرية نفسها ..!

هزّ السير (جيمس) رأسه موافقا ، وقد بدا لى أنه لم يفطن إلى ما فى هذه العبارة من إهانة مستترة للجميع بما فيهم هو نفسه ..

واصل (فريزر) كلامه :

ـ خذ عندك هذا المعتوه (انفريد) الذى يعتقد أن كرامة أسلافه ، تتوقف على إلقاء الفتيات ليمزقهن هذا الوحش ..

كان (إيوان فريزر) رجلا قوى العضلات ، أسمر

البشرة ، له لحية شقراء مشعثة ، وخصلات ثائرة تحيط برأسه .. وكانت نظراته وقحة وصارمة إلى حد مزعج .. وكان يأكل فى عصبية لا مبرر لها ..

فى وجبة العشاء ، قدمه لنا السير (جيمس) على أنه صديق قديم ، وأنه يجيد كل فنون الصيد .. لقد كان صياد أسماك قرش يومًا ما ..

ـ صياد أسماك قرش؟

ـ .. وحيتان ..

ـ وحيتان ؟..

ـ ونمور ..

قال السير (جيمس) فى انبهار كالأطفال :

ـ لقد اصطاد التماسيح ... وذهب للهند من أجل النمور ... واصطاد الأفيال فى إفريقيا ، قبل أن تحرم السلطات صيدها ..

.. نقر (إيوان) بإبهامه على صدره فى فخر .. وقال :

ـ الواقع أننى لم أترك شيئا يمكن صيده إلا وحاولت ..

ثم بدأ يحكى لنا بعض القصص عن صولاته وجولاته فى أحراش إفريقيا ، وحقول السافانا ، وأعالى البحار ..

لقد اصطاد كل شىء من العصافير حتى الحيتان ، وإن خبرته بالأسلحة والمقذوفات النارية لا تقدر بثمن ..

وأنا لست غيورًا ..

لم أكن أبدًا من هؤلاء الذين يحبون ألا ينصبَ الاهتمام على سواهم .. إلا أننى شعرت بغصة فى حلقى وأنا أرى علامات الانبهار على وجه (ماجى) ، وهى تشرب كل كلمة وكل حرف من كلماته .. لقد حملها معه بكلماته إلى حوض الأمازون ، وإلى غابات الكونغو وسهول الصين .. وكانت تحلم ..

لست غيورًا أبدًا ..

لكنى أمقت أمثال هذا الوحش السادى ، الذى يستمتع بتعذيب مخلوقات الله الجميلة ... فلا ينام قرير العين ، إلا بعد أن يتأكد أن حيوانًا آخر لن يرى الشمس غدًا .. و ... (ماجى) تحب هذا ..

كان يقول :

ـ إن هذا الوغد (آلفريد) يستحق أن يمزق برصاصة .. ثم تُسحق جثته .. وتقدم لطعام الكلاب فى حديقة دارى ..!

حتى فى حماسته للخير يبدو شريرًا كالشيطان ذاته ..

كيف لم تلحظ (ماجى) والسير (جيمس) هذا ؟!..

انحنيت نحو (ماجى) وهمست فى أذنها :

ـ لماذا أحضر أبوك هذا السفاح ها هنا ؟!

لم ترد لأنها كانت منصتة له ، وقد التمعت عيناها ، وانفرجت شفتاها قليلا :

ـ (ماجى) ..!

التفتت إلىّ فى حيرة كأننى أيقظتها من حلم رائع .. وتساءلت :

ـ ماذا ؟!

ـ لماذا أحضر ابوك هذا السفاح هنا ؟

همست فى ضيق :

ـ أعتقد أنه لا يوجد سوى تفسير واحد ، ولا أظنك بهذا الغباء .. والآن دعنى أصغ ، فإن كلامه يثير اهتمامى بالفعل ..!

ثم عادت تصغى لكلماته بكل جوارحها ..

ارتشفت كوب العصير الذى كان أمامى ، وأنا أشعر أن كل ما فى الكون من عصائر لن ينجح فى إطفاء ظمئى ، وإزالة المرارة التى فى حلقى ..

وانتهى العشاء ..

مسح (إيوان) فمه بالمنشفة فى فظاظة .. ثم أعلن أنه يجب أن ينصرف ، على أن يعود باكرًا لمناقشة (الأعمال) كما قال ... وصافح السير (جيمس) وصافحنى ـ بيد كأنها منحوتة من صخر ـ ثم تناول يد (ماجى) .. وانحنى يطبع عليها قبلة وعيناه لا تفارقان عينيها ..

ثم إنه انحنى، وانصرف..

قلت للسير (جيمس) فى رعب بمجرد أن انغلق الباب:

- سير (جيمس).. لا تقل إنك ستتفق مع هذا الحيوان، على قتل وحش (لوخ نس) ؟!

هز كتفيه فى لامبالاة، وقال:

- إننا لم نتفق على شىء بعد، لكن قتل الوحش هو ما أريده منه فعلًا..

- ولماذا ؟!..

نظر إلىّ فى دهشة:

- هل لديك حل آخر ؟!..

- نعم.. ما شأننا نحن بكل هذا ؟!.. لِمَ لا نبلغ البوليس وينتهى الأمر..؟

وضع يده على كتفى فى صبر كأنه يعظ خاطئًا فى محراب، وقال:

- يا بنى.. إن قتل الوحش يعطينا فرصتين.. عصفورين بحجر واحد... أولًا هو سينهى سلسلة القرابين التى لابد أنها ستستمر طالما ظلّ (هولثروب) طليقًا.. ثم إنه سيحقق حلمنا العتيد.. ستكون لدينا جثة (لوخ نس) كاملة سليمة، كى يراها العالم ويشرّحها العلماء ويحنطها أصحاب مُتحف التاريخ الطبيعى..

أن (فريزر) سيقدم لى مجدى العلمى - وثمرة صراعاتنا - على طبق من ذهب..

- ولكن - حتى إذا قبلنا هذا - كيف يستطيع قتله ؟!

- تلك هى مشكلته..

ثم ابتسم وغمز لى وهو يخرج من القاعة:

- وثق بأنه سيجد لها مخرجًا..!

* * *

لم أحاول أن أجادل كثيرًا، لكنى كنت أومن بأن وحش (لوخ نس) يستحق حياته، بعد أن عاش ثمانية قرون حرًا طليقًا، تمر به الأجيال... ثم إنه ليس شريرًا أكثر من أسد لا يأكل سوى اللحم، ولا ذنب له فى ذلك.. إذا ألقى أحدهم بإنسان إلى هذا الأسد والتهمه.. عندئذ هل نعاقب الأسد أم المجرم الذى هيأ له ظروف الافتراس كاملة ؟!

على أن هذا كله كان سابقًا لأوانه، لأنى أشك فى أن يكون هذا المدعى قادرًا على إيذاء ما هو أكثر شراسة من الأرانب البرية..

إنهم يحاولون صيد هذا الوحش منذ عام ١٩٣٣.. وكلهم فشلوا.. فما الذى يجيد (إيوان فريزر) عمله، ويعجز عنه كل هؤلاء الذين سبقوه ؟!

* * *



كانت الحجرة مفتوحة .. وعلى المنضدة جلست (ماجى) وحول أذنيها شىء يُشابه جهاز (الهيدفون) ..

فى الصباح ذهبت لـ (ماجى) فى حجرتها ..

كانت الحجرة مفتوحة .. وعلى المنضدة جلست (ماجى) وحول أذنيها شىء يشابه جهاز (الهيدفون) .. وأمامها أدوات نحت كاملة .. ومجموعة معقدة من الأسلاك، وجهاز ميكروفون معلق على بعد سنتيمترات من فمها ..

وكان هناك جهاز معقد، يشابه أجهزة رسم القلب، يخرج منه شريط طويل من الورق، عليه خطوط متعرجة، وبجواره ترموس قهوة وكوب نصف ملىء ..

وما ان رأتنى حتى رفعت كفها محيية دون كلام ..

قلت فى فضول :

ـ (ماجى) .. ما هذا الـ ....

فأوقفتنى بنظرة من عينيها .. وأشارت ـ بعتاب ـ إلى شريط الورق الذى أخذ يتحرك خارجًا من ذلك الجهاز، وعليه خطوط كثيرة متعرجة ومتكسرة ..

الآن فهمت ..

إنها تجرب جهازًا معقدًا يحوّل ذبذبات الصوت إلى رسوم (فونوجرام)، يسهل تحليلها وقياسها .. ولكن ما جدوى هذه التجربة، وما الذى يدفعها فى هذا الوقت لكى تتذكر أنها فيزيائية ؟

وهنا رأيتها تتناول شيئًا طويلًا أبيض كالبوق، وتقربه من فيها ثم تنفخ فيه أمام الميكروفون .. لا شيء لا صوت .. إلا أن الشريط أخذ يزحف خارجًا من الجهاز، وقد امتلأ بالخطوط المتلاصقة ..

مدت يدها إلى زر بالجهاز وأطفأتــــه، ثم نزعت (الهيدفون) عن رأسها وهى تتنهد الصعداء .. ثم صبت لنفسها بعض القهوة فى الكوب، وناولتنى الترموس وكوبا آخر :

- اشرب !.. ساعد نفسك لأنى مشغولة ..

قلت وأنا أجلس، وقد فهمت أن (حظر السؤال) قد انتهى :

- لا أريد .. والآن ما الذى تفعلين ؟

- كما ترى ..

أمسكت بالبوق الذى صنعته بين أناملى، وتأملته معجبًا :

- إنه جيد الصنع ..

- شكرا .. احترس حتى لا تتعثر فى هذه الأسلاك ..

- من أين جئت بالعاج الذى قمت بنحته ..؟

- إنها قطعة أعطانيها (إيوان فريزر) أمس ..

- يا له من لطيف !

قصت (ماجى) قطعة الورق المرسومة عليها الخطوط الأخيرة .. ثم نهضت واتجهت إلى قطعة من الورق الشفاف، مرسومة عليها خطوط مماثلة، معلقة بجوار فراشها .. ووضعت القطعتين فوق بعضهما ..

- ما رأيك ؟!

كانت الخطوط المتعرجة تتطابق تمامًا فى الورقتين .. لكنى لم أفهم شيئًا .. لهذا سألتها فى حيرة :

- رائع .. ولكن ما معنى هذا ؟

فأفهمتنى فى حماسة : أن الورقة الشفافة تحوى ذبذبات الصوت، التى كان يحدثها البوق القديم المسروق - بوق الفايكنج - أما الورقة الأخرى، فتحوى ذبذبات بوقى الذى قضيت الليل أنحته، محاولة الوصول إلى تردد وطول موجاته ..

إنهما يتطابقان تمامًا ..

ثم قالت فى فخر :

- إن هذا يعنى أنها أعادت صنع البوق الذى يستدعون به وحش (لوخ نس) ..

- ولكن لا صوت له على الإطلاق ..

- كلا .. إنها ذبذبات ذات تردد عال جدًا يفوق قدرات الأذن البشرية، لكن آذانا أخرى تسمعها .. مثل صفارات الكلاب تمامًا ..

إن وحش (لوخ نس) يعرف هذه الذبذبة وينتظرها ..

ـ لو كان هذا صحيحًا لاقتحم علينا الغرفة الآن، وهو يبصبص بذيله كالكلاب .. فلابد أنك نفخت فى هذا البوق عشرات المرات ..

ضربتنى بقبضتها فى كتفى بدلال، صائحة :

ـ لا تكن سخيفًا .. إن مدى صوت هذا البوق لن يصل للبحيرة إلا إذا نفخنا فيه عند قلعة (إيركهارت) ..

وتأملت البوق فى انبهار شديد .. انبهار المثّال بتمثال رائع انتهى منه لتوه، وقالت :

ـ هكذا يمكننا أن نستدعى (نيسى) وقتما يشاء (إيوان) كى يقتله .. لقد أنهيت مهمتى، ولم يبق سوى نحت القلادة ..

وفتحت كتابًا أمامها، أخرجت منه ورقة مرسومًا عليها بالقلم الرصاص ـ عن طريق التظليل ـ نسخة طبق الأصل لقلادة الفداء المسروقة .. رسم خشن يصوّر تنينًا يلتهم فتاة وهى تنظر إلى السماء .. وحولها حروف مزخرفة لا تنم عن ذوق جيد ..

ـ (رفعت)!.. سأكون بحاجة لعونك، فأنت تجيد الرسم والنحت .. علينا أن نصنع قلادة برونزية تماثل تماما هذا الرسم ..

ـ بكل سرور .. ولكن ما الداعى إليها ..؟!

قالت وكلها دهشة من حماقتى :

ـ أحيانًا لا أفهمك يا (رفعت) ..

كيف يفترسنى وحش (لوخ نس) إذا كنت لا أرتدى قلادة الفداء ؟!

* * *

١٠ ـ خطتنا يجب أن تنجح ..

فرد (إيوان فريزر) على المنضدة لفافة الورق التى يحملها .. وأشار إلى نقاط حمراء متناثرة هنا وهناك، مستعملاً طرف سيجارته المشتعلة كمؤشر ..

ـ ها هى ذى ..!.. شبكة كاملة على عدة أعماق من الألغام البحرية القذرة .. تكفى لمسة واحدة لزر المفجّر، كى تتطاير أشلاء هذا الوحش فى الفضاء .. سنمرح كثيراً .. هى هى هى!

قال سير (جيمس) فى ذعر :

ـ لحظة أيها السفاح ..!.. نحن لانريد قتل الوحش فقط، بل نريد قتله والاحتفاظ بجثته سليمة لغرض البحث العلمى ..

مضغ (فريزر) سيجارته، وقد بدا عليه الاحباط .. واستدرك :

ـ نعم .. بالفعل!.. ثم إن الانفجار سيفتت المرأة أيضاً ..!

هكذا ..!.. هذا الوحش الفظ يقول عن حبيبتى الرقيقة (ماجى) .. المرأة .. حقًا إنه لايملك ذرة لباقة .. وليس ـ على أية حال ـ ذكيًا ..

شرع الرجل يهرش رأسه دقائق، ثم قال :

ـ الواقع أننى لا أجد حلاً يقتل هذا الوحش، دون أن يمزقه .. تقول لى إن طوله ١٢ متراً ..؟!..

ـ نعم .. هكذا قالوا :

ـ هذا كثير .. هممم!

ثم قال بعد تردد :

ـ الواقع أن هناك حلاً غير مرض .. هو أن نجتذبه ليقترب، ثم نصوب خراطيش قوية ـ مثل تلك التى نستعملها فى صيد الخراتيت ـ إلى مقاتله .. إلى عينيه وما بينهما وحلقه ..

قال سير (جيمس) :

ـ لكن هذا يجعل الخطة كلها تتوقف على ردّ فعلنا لحظة خروجه من الماء، وعلى دقة تصويبك .. ثم إنه بالقطع سيتلوى ويثور، ولن تأمن ضربة من ذيله ـ إذا كان له ذيل ـ تطيح بـ (ماجى) أو تمزقها ..

صحت فى غضب حقيقى :

ـ لازلتما تتحدثان كأن (ماجى) ستقبل فعلاً أن تقف فى موقف الضحية أمام الوحش .. إننى أرفض .. وأمنعكما بشدة ..!..

نظر (إيوان) إلىّ وإلى السير (جيمس) نظرة معناها

-بوضوح- ماذا دها هذا الأبلة ؟!، أما السير (جيمس) فإنه نظر إلىّ في حزم، وقال:

- د. (إسماعيل).. إن قبول (ماجي) أو رفضها ليسا من شأنك.. إنها هي الوحيدة صاحبة القرار.. إنها تعرف أننا بحاجة لدورها.. وتعرف أننا لن ندع شرًا يمسها، فلا تلعب دور العاشق الحنون على حساب رصيد حبي لها كأب..

بمعنى آخر.. لست أنت الوحيد الذي يحبها في هذا العالم..

صاحت (ماجي) محاولة تهدئة الموقف:

- (رفعت).. أرجوك.. أنا أقبل ذلك، بل وأرحب به..

صحت وقد أوشكت على البكاء، خاصة أن السير (جيمس) لم يغضب علىّ هكذا قبلًا:

- إذن لم لا تقدمون له تلك الفتاة (إيريكا) ؟.. أليست من أصل اسكندنافي يحبه هو ؟

قالت (ماجي):

- إن البائسة لن تتحمل أية تجربة قاسية أخرى.. أما أنا فأتحمل..

وقال (إيوان) وهو ينظر ناحية (ماجي) في ثقة وخبث:

- ثم إن الوحش لن يفرّق بين فتاة اسكندنافية، وفتاة اسكتلندية.. إن الفتيات يتشابهن جميعًا..!

يا لك من خنزير..!

* * *

وبدأت أقسى أيام حياتي..

كان (إيوان) يقيم عندنا ليلًا ونهارًا تقريبًا، ورائحة أنفاسه العطنة تلاحقني، وعباراته الفظة التي يغازل بها (ماجي) - أو يظن أنه يغازلها بها - تثقب مسمعي.. والسير (جيمس) يرحب.. و(ماجي) تبتسم.. وأنا أحترق!

لقد تغيرت (ماجي) كثيرًا..

لم أعد أرى نفسي في عينيها، وأعرف - في هلع حقيقي - أنني قد بدأت أفقدها..!

لقد كان هذا خطئي..

لقد أحببتها حبًا هادئًا منتظمًا كالنهر الراكد.. لا جديد فيه ولا مفاجئ.. إنني فقدتها في اليوم الذي عرفت هي فيه يقينًا أنها لن تفقدني !!، أما (إيوان) فهو الخيال ذاته.. هو البحر المتقلب الثائر، الذي لن تعرف أبدًا ما إذا كانت راقت له من عدمه، ولن يكف عن إحباطها وإثارة قلقها..

إن حبي الممل.. وإخلاصي الأبدي.. وانبهاري الخالد

بها، هى الأسباب التى جعلتها تفلت كالماء من يدى..،
والنساء لايستغنين عن المحب المنبهر متقطع الأنفاس
خلفهن، لكنهن يردن - بالفعل - ذلك الوغد الوقح الفظ،
الذى لايعيرهن اهتمامًا كى يمشى أمامهن.. وليكن هذا
درسًا لى فى قصصى التالية، إن وجدت..

* * *

عاد (إيوان فريزر) إلى القصر حاملًا لفافة كبيرة..
وعلى المائدة الموجودة فى قاعة الطعام أفرغها - أمام
نظرات (جراهام) كبير الخدم المشمئزة - ليرينا ما فيها
من عجائب.. وكانت هناك زجاجتان كبيرتان مليئتان
بسائل ما، وقد تم لحام قاعدة كل منهما بشىء يشبه
السهم..

- والآن ترون أحدث ما وصلت إليه..

ثم شرع يشرح لنا الفكرة. إن هذه الزجاجات مليئة
بحمض الكبريتيك المركز ومجهزة بحيث يمكن تركيبها فى
فوهة بندقية الأعماق..

- وعند خروج الوحش فاغرًا فاه نقوم -أنا والأخ-
بإطلاق هاتين الزجاجتين على فمه.. ستنفجران فورًا
بالداخل وتحدثان قروحًا وحروقًا مروعة قد تقتله على
الفور.. دون أن يصاب بأذى فى جسده..

- وقد لا تقتله..!

قلتها فى شك وبرود..، فقال لى بلهجة ساخرة:

- عندئذ.. ستهدأ حماسته ويغوص فى الأعماق إلى أن
نحرر المرأة ونفكر فى فكرة أخرى..!!

أبدى سير (جيمس) حماسته للفكرة، وأيدته (ماجى)
أما أنا فقد كان رأيى واضحًا أن مجزرة ستحدث نتيجة
اقتراح هذا المعتوه.. إن (نيسى) لن يموت قبل أن يقلب
البحيرة رأسًا على عقب، ويقتلع الصخرة وعليها
(ماجى).. ويفترسنا جميعًا.. و... و...

- اسمعنى يا أخ.. إما أن تقول فكرة أفضل أو تصمت..

فصمت..

* * *

وهكذا اقترب اليوم الموعود..

وبقلب جريح وروح قلقة، شرعت أعد القلادة
البرونزية المشئومة التى سترتديها حبيبتى -السابقة-
حين تقدم نفسها لوحش (لوخ نس)..

وشرعت أتدرب مع (إيوان) على استعمال البندقيتين
الخاصتين بالأعماق، وعلى تركيب ونزع زجاجات
الحمض الحارق من فوهات بندقيتيهما..

وعلمنى (فريزر) أن أطلق بندقيتى، ثم أتراجع لأعيد
حشوها، فى الوقت الذى يطلق هو فيه بندقيته.. وهكذا
لايتوقف سيل الزجاجات الحارقة لحظة..

ـ كلما آلمت الحروق الوحش، فتح فاه أكثر .. سيكون التصويب أسهل عندئذ ..، سيكون مع كل منا أربع زجاجات فحافظ عليها ..

الواقع أن (فريزر) لم يكن سيئًا إلى هذا الحد .. فلقد علمنى الكثير بالفعل ..، ثم إنه لم يتقاض مليمًا من السير (جيمس) مقابل مجهوداته .. لقد كان حبه للتدمير خالصًا بلا أى غرض (دنيوى) .. إن فكرة قتل هذا الوحش قد أنسته كل المطامع المادية، وقشور حياتنا السطحية !!

وجاء اليوم ..

★ ★ ★

وأخيرًا جاء المشهد الذى بدأت به قصتى ..

نحن الأربعة فى قارب يتأرجح بين أمواج البحيرة، متجهًا نحو صخرة القرابين المشئومة .. والضباب يغمر سطح الماء ويجعل الرؤية عسيرة تمامًا، مما سيجعل مهمة التصويب شديدة التعقيد ..

(ماجى) ترتدى القلادة فى صمت، وتفك دبوس شعرها كى تتناثر خصلاته الشقراء على كتفيها ..

السير (جيمس) يتأكد من ثباتنا وإصرارنا على الاستمرار ـ ما عداى بالطبع ـ ثم يساعد (ماجى) فى الصعود للصخرة، التى تناثرت عليها عظام عشرات

الأكف، لفتيات فى عمر الزهور، سبقتها ها هنا منذ ثمانية قرون ..

ثم قام (إيوان فريزر) بربطها ـ رباطًا صوريًا غير محكم ـ إلى العمود الخشبى، وتأكد أنها بحركة بسيطة تستطيع تحرير يديها والفرار فى أية لحظة تريد ..

ثم إننا تركناها واقفة .. وحيدة .. عزيزة إلى نفسى .. شجاعة ..

ونزلنا إلى القارب .. وأوصلنا السير (جيمس) إلى صخور الشاطئ المجاورة لقلعة (إيركهارت) .. ثم عدنا ـ أنا و (إيوان) ـ إلى الصخرة حيث اختبأنا فى القارب وعيناننا على (ماجى) .. أعنى على شبحها الواقف وسط الضباب ..

وكان على السير (جيمس) أن ينفخ فى البوق، حين تصير الساعة الثانية عشرة تمامًا ..

فى صمت نعد بندقيتنا .. ونرص زجاجات الحامض فى قاع الزورق .. (إيوان) متوتر تمامًا لكنه يدارى ذلك بقناع من ثقل الدم والتعالى .. أما أنا فيكاد قلبى يثب من فمى لو جرؤت وفتحته .. لهذا أصمت ..

كان الضباب باردًا ثقيلًا كالكابوس، وكان هناك طائر شؤم لا أعرف نوعه، يحوم حول الصخرة فى دوائر متلاحقة ..، فى حين أخذ القارب يتأرجح ..

أشعل (إيوان) سيجارة، ومدّ يده إلى حقيبته، فأخرج منها كشافًا يخرج منه سلكان.. ثم بطارية سيارة، أوصل بها طرفى السلكين مستعملًا (بنسة) صغيرة، وأضاء الكشاف، فانبعث نور أصفر كئيب، نجح فى إزالة الضباب حول الصخرة، وبدت لنا (ماجى) واقفة وهى تضيق عينيها من أثر الضوء.. وكان موقعنا فى الماء على بعد عشرين مترًا من الصخرة:

- مصباح فوسفورى.. إنك لا تنسى شيئًا..

قلتها له فى إعجاب.. فقال وهو يرمى السيجارة فى الماء بعد نفس واحد منها، لأن أعصابه لم تتحمل المزيد من الدخان:

- بالطبع.. إن الضباب يفسد تسعين فى المائة من الخطط المحكمة.. هذه حقيقة..

- المهم الآن ألا يتعكر مزاج الوحش، لأنه لم يعتد هذه المؤثرات المسرحية على مائدة العشاء..

قال (فريزر) وهو يشعل -لاشعوريًا- سيجارة أخرى..

- لا أظن.. ولا أعتقد أنه سيلاحظ الضوء أساسًا..

ثم نظر إلى ساعته، وهمس بقلق:

- بقيت ثلاث دقائق...

الطائر يحوم حول الجزيرة أحيانًا، فتلتمع عيناه الشريرتان فى ضوء الكشاف، ثم يخرج من دائرة الضوء ليصير مجرد ظل مرفرف فى السماء القاتمة..

القارب يتأرجح فى بطء..

دخان السيجارة ودقات قلبى.. وحلقى الجاف..

قبضة (إيوان) تتوتر على البندقية..

الآن أرى - بعين الخيال - السير (جيمس) واقفًا فى الظلام عند قلعة (إيركهارت) يرفع البوق العاجى إلى فمه.. وينفخ..

تبًا لهذا الصمت..!

هذا الصمت المشئوم الذى تكاد تسمع له ضجيجًا يدوى فى أذنيك، ويكاد يخرقها.. صمت له كيان ملموس ثقيل.. و...

صفحة الماء تتحرك..

تصلبت قبضتى على البندقية..

شىء أسود ضخم يرتفع من البحيرة والماء يتساقط منه والأمواج تثور وتتعالى..

فى بطء وثقة ينفض عن نفسه قطرات الماء ويتحرك..

الآن نرى ذلك الشىء.. الرأس والعنق.. والعينين..



رفعت بندقيتى تجاهه ، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة أمسكت يدى ..

وسمعت (فريزر) يهمس حتى أن السيجارة سقطت منه :

ـ يا للهول !!

كائن أسطورى خارج من كتب التاريخ الطبيعى ، ومن أساطير الفايكنج، يرفع رأسه فوق سطح مياه البحيرة ، ويتقدم من الصخرة .. العنق طويل كعنق الأفعى .. الرأس عملاق تلتمع فيه عينان ناريتان .. ثم معرفة الحصان التى تحدث عنها الشهود ولم تصدقها مسز (جولد) ..

لم يكن قد دخل دائرة الضوء بعد ، لكنى كنت أرتجف هلعا من أن أرى بوضوح وجهه المريع ، الذى عرفه غزاة الشمال تماما ..

رفعت بندقيتى تجاهه ، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة أمسكت بيدى ، ولأول مرة لمحت الرعب فى عينيه الوقحتين ، وهو يهمس :

ـ لا تطلق .. لقد أجهضت خطتنا ..!!

ـ ماذا ؟..

ـ إن حساباتى خاطئة .. لن يجدى مع هذا الشىء سوى (الطوربيد) .. فلا تثر هياجه .. عملية فاشلة ..

ـ ولكن ...

ـ إن تأثير قذائفنا . لن يحدث سوى ما يحدثه كوب من

الشاى الساخن فى لسانك .. سيثور .. ويفتح أبواب الجحيم علينا وعلى المرأة ..

ثم بدأ يتحرك بالمجذاف تجاه الصخرة ببطء وحذر .. وكان الوحش يتقدم بنفس السرعة والتؤدة من الجهة الأخرى، أخرج (فريزر) سكينًا من حزامه، وهمس وهو يقذفه إلىّ:

- حاول أن تحرر الفتاة.. سأراقب ظهرك من هنا.. عُد بها وسنعود للشاطئ بأقصى سرعة .. إن هذا الشىء ثقيل الحركة أو هذا ما أرجوه ..

ووثبت - حاملًا بندقيتى - إلى الصخرة .. إلى المسرح المعد للمأساة، وألقيت نظرة على المشهد الرهيب، الذى ستراه الضحية .. أى رعب وأى هلع كانت تشعر به الفتاة المقيدة، وهى ترى ذلك الشىء الأسطورى يتجه نحوها هى ..؟!.. لم يزل بعيدًا لحسن الحظ .. لهذا جريت خلف (ماجى) وشرعت أمزق قيودها بالسكين، دون أن تسألنى عن شىء .. عيناها مثبتتان - كالمنومة مغناطيسيًا - على الوحش الذى يتقدم رافعًا رأسه من الماء فى صمت نحوها هى .. هى ...

- (ماجى) ياحبيبتى .. لن نحاول أكثر .. لقد أدركنا قصورنا ..

(ماجى) .. إننى ..

* * *

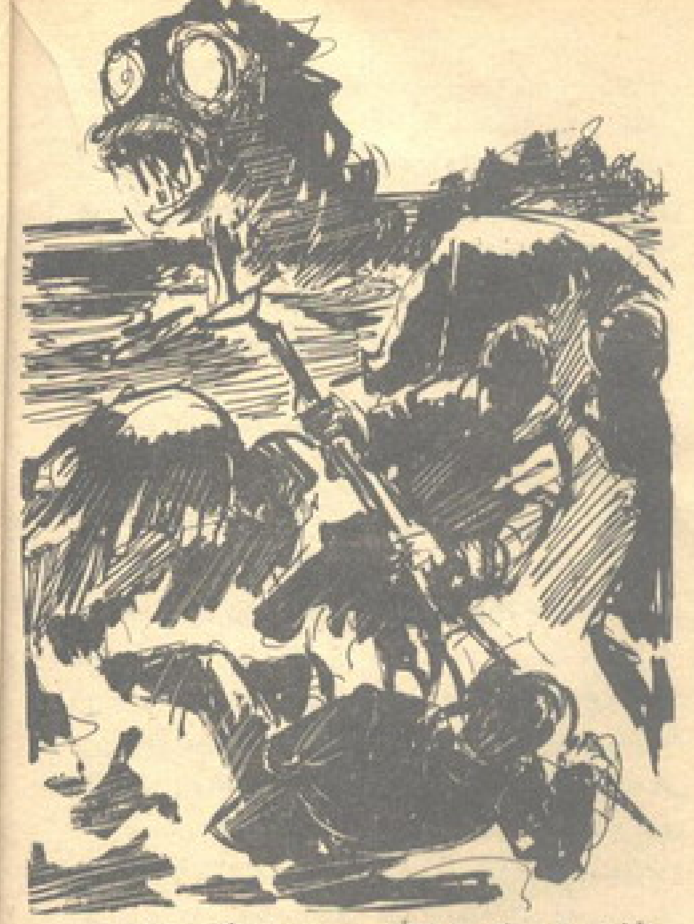
وهنا - وقبل أن أفهم ما حدث - وثب فوقى خيال أسود من إحدى الحفر الموجودة فى الصخرة .. والتحم معى محاولًا انتزاع السكين من يدى، وهو يسبنى بلغة لا أعرفها .. اتخذت وضع المقاومة تلقائيًا، ووجهت له لكمة قوية بمؤخرة البندقية فوق رأسه .. ثم ركلة محمومة فى أسفل بطنه ..

لكن الوغد كان قويًا .. وسرعان ما استعاد توازنه، ووجه إلىّ ركلة أقوى من ركلتى فى بطنى، جعلت أذنى تصفر والهواء يندفع من فمى، لكنى - لحسن الحظ - لم أكن أملك ترف الإغماء ..

صاح من بين أسنانه بالإنجليزية وهو يرفس السكين من كفى:

- يا أولاد الشياطين!.. إنكم ستفسدون كل شىء!!

وهنا سقط الضوء على وجهه .. فلمحت شاربه الأصفر، وشعره الطويل .. لم أحتج لإضاعة الوقت كى أعرف من هو .. (آلفريد هولثروب) .. (آلفريد) الذى اختبأ طيلة الوقت فوق الصخرة - فى هذه الحفرة - منتظرًا كى يرى ما سنفعله .. وفى هذه اللحظة الحرجة يعلن عن



اتخذت وضع المقاومة تلقائيًا ، ووجهت له لكمة قوية بمؤخرة البندقية على رأسه ..

وجوده بأشرس الطرق .. والأسوأ أنه استطاع أن ينتزع مني السكين .

تأملت وجهه المسعور المجنون ، وأسنانه البيضاء التي يكشف عنها كالذئاب ، وأدركت أنني لن أهزمه أبدًا ..

ولكن أين (فريزر) ؟!..

ـ إنكم ستثيرون غضبة (أودين) أيها الحمقى !.. لاتحاول حرمان الوحش من القربان أيها الكلب الإنجليزي ..!!

إن الوحش يقترب من الصخرة ..

لا وقت لدي .. لكن (ماجي) منبهرة تمامًا ، ولن تكون ذات عون لي .. وهذا المتعصب يلوح بالسكين في وجهي ، وقد بدا لي أنه يعرف هذا السلاح جيدًا ، وسيستخدمه كأفضل ما يكون .. لا يوجد خيار لديّ .. صحت :

ـ .. والآن يا بني لم يعد لدي وقت .. لقد أردت ذلك !

وضغطت على زناد البندقية فانطلقت زجاجة الحمض الحارقة نحوه من مسافة لا تتجاوز أربعة أمتار .. انفجرت الزجاجة في وجهه وجسده وتناثر رذاذها عليّ .. وسمعته يصرخ كإنسان يتعذب في أعماق الجحيم .. ورأيته يتلوى راقصًا رقصة الألم المجنونة .. وشممت رائحة اللحم المحترق ..

ولحسن الحظ لم أر وجهه فقد خرج من دائرة الضوء ..

إنه يترنح .. يصرخ ... ينهض ثم يلقى بنفسه فى الماء وهو يردد عبارات لا أفهمها ، بلغة لا أعرفها ... كان يسبح تجاه الوحش دون أن يعرف ذلك أو يرى شيئا ..

وهنا ..

مد الوحش عنقه الطويل مدليًا رأسه فى الماء الثائر ، وفتح فمه الذى تملؤه الأنياب .. و ...

انتثر الماء ملوثا بسائل أحمر .. ولمحت يدين تحاولان إبعاد الفكين العملاقين .. وصرخة هلع .. ثم ... لاشىء ..

وارتفع الرأس فى ثقة مستقرًا فوق عنقه .. ثم بدأ هذا الكابوس الحىّ يغطس فى الماء ببطء ورزانة ، محدثًا دوامة هائلة حوله وقد أخذت الفقاقيع تتكاثر فوق السطح .. وثمة أشياء لا أدرى كنهها تتأرجح فوق صفحة الماء . ثم ساد الصمت ..

تركت (ماجى) وجريت إلى الزورق لأرى .. إن كون (فريزر) لم يأت ولم يفعل شيئا بعد كل هذه الأحداث ، لايعنى سوى شىء واحد ... وهناك وجدته ممددا على قاع الزورق ، ورأسه ينزف .. لقد ضربه المخبول بشىء على رأسه لكنه لم يزل حيًا .. إذن لقد سبح من الشاطئ إلى

الصخرة ، وضرب (فريزر) بالمجداف من الخلف ، ثم تسلق الصخرة محاولا منعى ..

همس الصياد فى إنهاك وهو يستند على ذراعى:

ـ ... الوحش ...؟!

ـ لقد نال قربانه الأخير ورحل ..

ونظرت ناحية البحيرة ، التى عاد سطحها يطفو على ما فيه من أسرار ..

لقد استحق وحش (لوخ نس) حريته وحياته .. ولن يستطيع مخلوق أن ينتزعهما منه بعدنا ..

* * *

خاتمـــة ..

قال السير (جيمس) :

ـ وهكذا انتهت تلك القصة، دون أن نقدم للعالم دليلًا على وجود هذا الوحش، ناهيك عن جثته ... لقد ضاع كل هذا المجهود هباء ..

ثم إنه نظر نحوى فى لوم :

ـ لو أنك لم تلق للبحر بقلادة الفداء والبوق العاجي، لاستطعنا تدبير لقاء آخر مع هذا الوحش، نكون فيه أكثر استعدادًا .. لكنى ـ أصارحك ـ لست غاضبًا منك إلى الحد الذى أحاول أن أبدو به ..

قالت (ماجى) باسمة وقد استعادت لباقتها بعد نوم عميق :

ـ المشكلة أن (رفعت) اقتحم غرفة نومى بالأمس، وأجبرنى علي ...

ـ على ماذا ..؟!

ـ .. على حرق كل ما دونته عن تردد وأطوال الموجات الخاصة بالبوق، حتى لا أحاول صنع بوق آخر ... بل إنه مزق الورقة التى رسمنا عليها القلادة اللعينة ..

هز سير (جيمس) رأسه فى حسرة، ونهض ليستعد

للسفر إلى أدنبرة، واعدًا بأن يأخذنى معه ... قلت لـ(ماجى) وأنا أرتب ثيابى أمام المرآة الموجودة فى قاعة الجلوس :

ـ هكذا سيظل الوحش فخرًا لاسكتلندا، يتساءل الناس عن كنهه، ويفرحون بلقطة رديئة يبدو فيها من تحت الماء .. إنه سيعتاد أكل الأسماك مرة أخرى، وينسى كل هذا الهراء إلى أن يجد أحدهم البوق مرة أخرى بعد قرون .. وينفخ فيه ..

نظرت إلىّ (ماجى) وفى عينيها تلك النظرة الثابتة التى أخشاها، وهمست :

ـ للأبد ؟!

ـ ماذا ؟

ـ قلت إنك باق معى للأبد .. فلماذا ترحل الآن ؟!

ـ هل نسيت (إيوان فريزر) ؟!

نظرت إلىّ فى ذهول .. ثم أخذت تضحك وهى تصفق بكفيها :

ـ إذن أنت تغار من (إيوان فريزر) ؟.. لم أدرك من قبل ذلك .. ولم أعرف أنك معدوم الثقة بالنفس إلى هذا الحد .. دع عنك هذه الخزعبلات يا (رفعت) .. لو كنت سأقع فى غرام كل من يحكى لى قصة مسلية، فأنا لم أزل طفلة

غريزة .. إنه مسلٍ لكنه مهرج كبير وجزار .. فهل تظن أننى بلهاء إلى الدرجة التى لا أفهم فيها هذا ؟!

ثم مدت سبابتها إلى أنفى مداعبة :

- أنا لم أعد مراهقة .. إننى .. أقترب من حافة الأربعين .. والمرأة فى سن الأربعين تفهم ما هو الحب ..

- لكنى ..

- إن المرأة تحب رجلها ليس لأنه أقوى الرجال ، ولا أوسمهم ، ولا أغناهم ، بل لأنه هو .... هل تفهم هذا ؟.. لأنه هو بضعفه وبقوته .. بهزاله وربوه وضيق شرايينه التاجية .. لأنه هو .... والحب ليس استعراض قوة لكنه طاقة عطاء دافئة مستمرة .. كيف أنسى نضالنا المشترك بهذه البساطة ؟

ازداد وجومى .. فمنطقها بارع وذكى .. لكنى لم أسترح بعد .. إلى أن قالت :

- ثم إنك لست معدوم الحيلة إلى هذا الحد .. إنك قد أنقذتنى وأنقذت (إيوان فريزر) نفسه ... إنك فككت قيود حبيبتك كما يفعل (طرزان) مع (جين) فى نهايات أفلامه ... ومن أجلى قاتلت ..

قلت فى حزن مواصلا كلامها :

- وقتلت ...

- لم تقتله لأنه هو الذى رمى بنفسه أمام الوحش .. ثم إنه لم يترك لك الخيار .. وهذا هو الفارق بينك وبين (فريزر) الذى كان سيحكى احتراق (أنفريد) بالحمض فى فخر شديد لو أنه كان مكانك ..

ارتجفت تأثرا - إعجابا بنفسى !! - وكاد البكاء يغلبنى . إلا أنى تمالكت نفسى ، وأخبرتها أننى يجب أن أذهب مرة أخرى ، لأن جذورى هنالك فى مصر .. عملى وأهلى وبيتى وقبرى ... وأننى حين وعدتها بالبقاء معها لم أكن أدرى ما أقول .. وكنت مدفوعا ببركان عاطفى ، يقذف الوعود بلا حساب ..

قربت وجهها من وجهى ، وهمست فى حزن شفاف :

- للأبد ..؟!

- ماذا ؟!

- ستظل تذكرنى .. إذن للأبد ..؟

- وحتى تحترق النجوم .. وحتى ...

وهنا صاحت فى هلع وهى تشير إلى شىء خلف ظهرى :

- (رفعت) !.. إن هذه الحُلة الحديدية الخاصة بالسير (آرشيبالد ماكيلوب) تتحرك !!.. أقسم على هذا .. إن هناك شبحا فى هذه القاعة !!..

لقد انتهينا من الأخ (نيس) لكى يبـدأ هذا الأخ (ارشيبالد ماكيلوب) فى تنغيص حياتينا ..!..

قلت فى إحباط وأنا أبتعد عنها ، وأرتب حقيبتى :

ـ سأعود من أجل هذا الموضوع يوما ما .. حاولى أن تحتفظى بهذا الشبح فى حالة جيدة من أجلى !

ـ فليكن .. هذا وعد ..!

وبعد أسبوع ـ أو أكثر ـ عدت لبيتى فى الدقى بالقاهرة العزيزة .. وذكريات جديدة تتخذ أماكنها فى مُتحف ذكرياتى ، وفوق رفوف خواطرى .. ظننت أن مشاكلى قد انتهت ، ولكنى ـ كالعادة ـ كنت مخطئا ، كان هناك كابوس آخر ينتظرنى فى نفس المنزل الذى أسكنه ، ونفس الطابق .. ولكن هذه قصة أخرى !.

د . رفعت إسماعيل

* * *

[تمت بحمد الله]